

شرح كتاب

التكتل الحزبي

تأليف

حافظ صالح

المحـــتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

التكـتُّل

عندما تتوالى المصائب على الأمة، وتتابَعُ عليها الأحداث، ويسُودُ فيها الظلم، ويُوَسَّدُ الأمرُ إلى غير أهله؛ يبدأ الناس بالتذمُّر، ثم ينتقل هذا التذمُّر إلى إحساس عام بالظلم؛ فيتجسَّدُ هذا الإحساس في بعض الناس بحيث يدفعُهُم إلى الحركة لدفع الظلم، وإبعاد الفساد، ورفع شأن مجتمعهم وأمتهم، والنهوض بها إلى المستوى الذي يتمنَّونَ الوصول إليه.

ومن البديهي أن يلجأ هؤلاء إلى التكتُّل لإيجاد القوة القادرة على التغيير حسب تقديرهم، وأن يجتمعوا على هدف أو فكرة يلتَفُّون حولها تتضمَّن أهدافهم وخَطَّ سيرهم.

وبالنظر إلى ما يعانيه عالمنا الإسلامي من انحطاطٍ وتأخر، وما يُقاسيه من ظلم وتعسُّف؛ فقد تتابعَتْ فيه الحركات التي استهدَفت وقفَ تدهوره، ورِفعة شأنه، والنهوض به إلى المرتقى السامي الذي يليق به، إلا أن هذه الحركات جميعها منذ ما يزيد على مئة سنة قد فشلت في تحقيق ما تصبو إليه! والدليلُ على فشلِها: واقعُ عالمنا الإسلامي اليوم؛ فقد استمر في انحداره حتى بلغ الحضيضَ أو كاد، ولم نحصُل من تلك الحركات إلا على هذه الرغبة الجامحة العارِمة في التغيير، فنستطيع أن نقول: إن خيرَ ما تركَت لنا تلك الحركات هذا الشعور العام بالرغبة في التغيير، ولو أنها كادَت أن تصلَ بالأمةِ إلى حدِّ اليأس، إلا أن

الناظر في الأمة يجد أنها ما زالت أمةً مِعطاءةً كريمة تجودُ بفلذات كبدِها في سبيل الخلاص مما تعانيه كلما أحسَّتْ أن هناك طريقًا للخَلاص، أو أن هناك قيادةً موثوقةً تسير وراءها.

والناظِر في هذه الحركات، والمتتبِّع لهذه المحاولات يجدُ أنها لم تكن أعمالًا فردية، وإنما هي تكتُّلاتٌ أو تنظيماتٌ تَكتَّلَت على فكرة معينة من أجل تحقيق هدف معين، ومع ذلك فقد فشلت!

أسباب فشل الحركات والمحاولات السابقة

ولمعرفة أسباب الفشل كان لا بد من دراسة هذه الحركات من ناحيتين:

١- الناحية الأولى: هي الفكرة والهدف الذي جرى التجمع من أجله. هل هي فكرة صحيحة أم خاطئة؟

٢- أما الناحية الثانية: فهي الناحية التكتلية، ولا نعني بالناحية التكتلية النظامَ الداخلي لتلك الكتل، وإنما الأسس التي يقوم عليها أي تكتل، بغض النظر عن الفكرة التي يتبنَّاها أو الطريق الذي يسلكه.

فالتكتل - أيُّ تكتل - إنما يقوم على أسس أربع هي:

١- الفكرة التي تضمنت الهدف والتي يتم جمع الناس عليها.

٢- الطريقة التي يسلكها هذا التكتل في سبيل الوصول إلى غايته.

٣- الأشخاص القائمون على هذا التكتل ومدى إيمانهم بفكرته وطريقته.

٤- الكيفية التي يتم بها انضمام الناس إلى هذا التكتل.

وأي خلل في أي أساس من هذه الأسس سيؤدي حتمًا إلى الفشل في الوصول إلى تحقيق الغاية التي يسعى التكتل إلى تحقيقها، وبإلقاء نظرة فاحصة على جميع الحركات التي حصلت طيلة القرن الماضي نجد أنها جميعها قد فشلت من ناحية تكتُّليّة بسبب إهمالها لهذه الأسس.

حيث إنها:

١- كانت تقوم على فكرة عامة غير محددة، حتى إنها كانت غامضة أو شبه غامضة، علاوة على أنها كانت تفتقر إلى التبلور والنقاء والصفاء.

٢- لم تكن تعرف طريقةً لتنفيذ فكرتها، بل كانت الفكرة تسير بوسائل مرتجلة وملتوية، فضلًا عن أنه كان يكتنفها الغموض والإبهام.

٣- كانت تعتمد على أشخاص لم يكتمل فيهم الوعي الصحيح، ولم تتركَّز لديهم الإرادة الصحيحة، بل كانوا أشخاصًا عندهم الرغبة والحماس فقط.

٤- هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يضطلعون بعِبء الحركات لم تكن بينهم رابطة صحيحة، سوى مجرد التكتل الذي يأخذ صورًا من الأعمال، وألفاظًا متعددة من الأسماء.

وسنبحث فيما يلي كل واحد من هذه الأسس بشيء من التفصيل:

١- أنها كانت تقوم على فكرة عامة غير محددة، حتى إنها كانت غامضة، أو شبه غامضة، علاوة على أنها كانت تفتقر إلى التبلور والنقاء والصفاء.

نعم، إن كل تكتل لا بد أن يقوم على فكرة، فإما أن تكون فكرة عامة أو فكرة كلية، فالفكرة العامة هي الفكرة التي تصلح أن تكون أساسًا للتفكير في أشياء كثيرة تلتقي في أساس واحد، وأما الفكرة الكلية فهي الفكرة التي تصلح أن تكون أساسًا لكل شيء، هذا من حيث التفريق بين الفكرة العامة والفكرة الكلية، فالأفكار القومية والأفكار الإقليمية والأفكار الوطنية؛ إنما هي أفكار عامة لا تشمل كافة نواحي الحياة، لكن الفكرة المبدئية هي فكرة كلية تشمل كافة نواحي الحياة.

أضف إلى ذلك أنها **غير محددة**، فالكُتَل التي قامت منها ما وُجد على أساس الإسلام (مجد المسلمين)، ومنها ما وُجد على أساس قومي (عزة العرب والكرامة العربية)، أو على أساس إقليمي وطني (مثل السوري أو ...)، أو غير ذلك، فهذه أفكار عامة، ولكنها غير محددة.

فمجد المسلمين، عزة المسلمين، العودة إلى الله، التربية الإسلامية، الأخوة الإسلامية، النهضة الإسلامية، النهضة العربية، الاستقلال، الوحدة العربية، الرسالة الخالدة، إلى غير ذلك من الأفكار أو الشعارات، ليس لها معانٍ محددة.

فقولنا مثلا:

إعادة مجد المسلمين- غامضة.

عزة المسلمين- غامضة.

العودة إلى الله- شبه غامضة.

التربية الإسلامية– شبه غامضة.

الأخوة الإسلامية– شبه غامضة، غامضة.

النهضة الإسلامية– غامضة.

النهضة العربية– غامضة.

الاستقلال– غامضة.

الوحدة العربية– شبه غامضة.

الوحدة الإسلامية– شبه غامضة.

وهكذا، **فالغموض** هو عدم معرفة القصد ولا كيفية الوصول إليه، وأما شِبه الغموض فالمعنى معروف، ولكنه غير مبيَّن المعالم، مثل: العودة إلى الله، التربية الإسلامية.

وأما فقدانها للتبلور، فالبلورة هي: الانتقال من حالة الميوعة أو السيولة إلى الحالة الصلبة، كتبلوُر الملح من الماء. والمقصود من عدم البلورة أنها كانت عبارة عن مشاعر وعواطف عند حمَلتِها، فلم تتجسَّد فيهم، بل لم يستطيعوا تحديدَ معالمها لو أرادوا شرحها للناس، ولذلك كانت تعتمد على الشعارات وإثارة المشاعر فقط، كما هي حالها عند معظم الحركات إلى الآن.

وأما فقدانها النقاء؛ فبالنسبة للحركات الإسلامية: لم تدرِك هذه الحركات ما أُدخل على الإسلام من أفكار غريبة، مثل: القواعد التي أُدخلت في بنية الأحكام الشرعية من الفقه الروماني أو الفرنسي، فهناك العديد من القواعد

الغربية تدرس على أساس أنها قواعد وأسس إسلامية، مثل: قاعدة "العادة محكّمة"، وقاعدة "الأصل في العقود المقاصد والمعاني"، وقاعدة "ما لا يخالف الإسلام فهو من الإسلام"، وغير ذلك.

فالنقاء يعني إبعاد الأجسام الغريبة عن الفكرة الأساسية لتبقى سليمة بأصولها وفروعها، وأما الحركات غير الإسلامية كالحركات القومية والوطنية فلم تدرِك خطورة ما حملته من أفكار غربية غريبة، بل إنهم آمنوا بها وأخلصوا لها، مثل: الحرية والديمقراطية وغير ذلك، وقد حاولوا أن يفسروا الإسلام بما يتناسب مع هذه الأفكار، فادّعوا أنها من الإسلام.

وأما الصفاء فهو وضوح الرؤية، والمقصود هنا بوضوح الرؤية: إدراك الصلة بين هذه الفكرة والأصل الذي انبثَقَت منه أو بُنِيَت عليه، فبالنسبة للمسلمين وحَمَلة الدعوة؛ فإن صفاء الفكرة يعني أن كلَّ حكم شرعي تدعو إليه مرتبطٌ بالدليل الذي انبثق منه، وأن كل فكرة تدعو إليها مبنية على فكر أساسي من عقيدة الأمة، ولم يكن ذلك متوفرًا لدى تلك الحركات ولم تستطع أن تفرّق بين الشورى والديمقراطية، بل لم تستطع أن تفرق بين أن الشورى حكم شرعي يرجع إليه الإنسان للتوصل إلى رأي صائب، بغضّ النظر عما إذا كان هذا الإنسان حاكمًا أو غير حاكم، فالشورى حكم شرعي مندوب، وهي أسلوب للتوصُّل لِـمَا يَغلِبُ على الظن بأنه الصواب، سواءٌ في الحكم أو في غيره، وما

زلتَ تسمع من دعاة الإسلام أن نظام الحكم في الإسلام هو نظام الشورى، وبالتالي فهو الديمقراطية الحقيقية!

وأما غير المسلمين من الذين ليس لهم فكرة محددة، فقد كان العمل أكبر وأشد؛ فأخذوا أفكار الغرب كما هي دون إمعان نظر فيها إذا كانت تصلح لأمتهم ومجتمعهم أو لا تصلح، وما زالوا على هذا الحال سواءٌ في أفكارهم الأساسية أو في أساليبهم.

٢- أنها لم تعرف طريقةً لتنفيذ فكرتها. بل كانت الفكرة تسير بوسائل مرتجَلة وملتوية، فضلًا عن أنه كان يكتَنِفُها الغموض والإبهام.

إن موضوع الطريقة ما زال مُلتبِسًا فَهمُه على جميع الحركات حتى اليوم، بل لا يكادون يميزون بين الفكرة والطريقة، والأسلوب والوسيلة، ويتصورون أن أيَّ عمل من الأعمال هو طريقة، وأدق من ذلك: فإنهم لا يميزون بين الطريقة قبل تحقيق الهدف، والطريقة بعد الوصول إليه، والسير في تنفيذ الفكرة.

كثيرا ما نقول إن المبدأ هو فكرة وطريقة، فالفكرة هي العقيدة والمعالجات وحمل الدعوة، والطريقة هي كيفية المحافظة على العقيدة، وكيفية تنفيذ المعالجات، وكيفية حمل الدعوة، هذا من حيث المبدأ وأنه فكرة وطريقة، إلا أن البحث هنا هو كيفية إيصال هذا المبدأ للحياة، ومِن ثَمَّ القيام على تنفيذه.

وحيث إن البحث هنا يدور حول التكتلات وفشلها من ناحية تكتلية، وليس الفشل في تنفيذ فكرتها، فإن موضوع الطريقة هنا هو الكيفية التي كان على

التكتل أن يسير بحسبها، أي: النظر إلى المرحلة المكية من حياة رسول الله ﷺ بالنسبة للتكتلات الإسلامية، وما هي الأحكام التي قام بها رسول الله ، والوعي على التفريق بين ما هو حكم وما هو وسيلة أو أسلوب لتنفيذ حكمٍ آخر.

فالجهر بالتبليغ حكم شرعي، وأن يقف الرسول ﷺ على الصفا وينادي: "واصباحاه". حتى يجتمع إليه القوم؛ أسلوب، واستعمال صوته ﷺ في النداء وسيلة، يُماثِلُها تبليغ حكم شرعي، أو إنذار بمخطط استعماري؛ حكم شرعي استُعمِلَت له وسيلة: هي النشرة، وبأسلوب النشر الواسع: كفاحي.

فالحكم الشرعي: هو العمل المطلوب أداؤه على وجهه.

والوسيلة: هي الأداة التي تُستعمَل كالنشرة أو الراديو أو مكبرات الصوت، ويُحدِّدها العصر أو الظرف.

والأسلوب: هو الكيفية التي تُستَعمَل في إيصال تلك الوسيلة، وتحدده طبيعة العمل.

إذن؛ فالمسألة في هذه الفقرة ليست الطريقة المقابلة للفكرة في المبدأ، بل هي الطريقة التي اتبعها رسول الله ﷺ في إيصال المبدأ للحياة، وتلخيصها هو:

١- تكتل يقوم على مبدأ بفكرته وطريقته.

٢- وله أمير.

٣- ويقومُ هذا التكتل:

أ- بإيجاد أشخاص مؤمنين به.

ب- إيجاد أمة أو شعب يقبَل به.

ت- إيجاد قوة تُمكِّن هذا التكتل من وضع المبدأ موضعَ التنفيذ في الحياة.

٤- ويتضمن كذلك مجموعة من الأحكام التي تتعلق بتحقيق هذه الغاية:

أ- كالالتزام بالدعوة الفكرية فقط، والابتعاد عن استعمال الوسائل المادية.

ب- إطاعة وتنفيذ ما يُلزِمُه به هذا التكتل، وما يتبناه من أفكار.

ت- تنفيذ ما يتخذه من قرارات.

وبناءً على ذلك؛ فإن تلك التكتلات، الإسلامية منها وغير الإسلامية، لم يكن لديها تصوُّر للطريق الذي عليها أن تسلكه، فكان ما تقوم به من أفعال هو ردود فعل لِمَا يحصل في المجتمع (أفعال مرتجلة دون فهم مسبق أو تخطيط، بالإضافة إلى تقليد ما يجري في العالم مثل: الإضرابات والتظاهرات ورفع الشعارات).

وأما كونها ملتوية فهو الدخول في مساومات مع الحكام والمسؤولين، أو الدخول مع غيرها من التكتلات، والالتواء في عمل جبهة أو منظمَة أو غير ذلك. أما إن كانت تلك التكتلات تتصور أن لها طريقة معينة فهي غامضة، فحين تُطالِب بالوحدة الإسلامية أو الوحدة العربية فإن طريقة تحقيق ذلك

غامضة؛ فلا يستطيعون معرفة الكيفية التي توصل لهذه الغاية، ولو أنهم يحاولون تَلمُّسَها، وأما الإبهام فهو الجهالة التامة لتلك الكيفية.

٣- أن القائمين على هذه التكتلات أناس دفعهم الحماس والرغبة إلى التغيير، نتيجة لظروف مرت بها البلاد أو إدراكًا لفساد الأوضاع، فاندفعوا بحماس إلى التغيير دون أن تتمركز فيهم الإرادة والوعي.

فالوعي على الفكرة والطريقة هو الجَوُّ الإيماني الذي يجعل صاحبَه في حماسٍ دائم حين يربِط أعمالَه بالقاعدة الأساسية التي ينطلق منها، وعدم الوعي يجعله عُرضة للتردد أو التقاعس أو المساومة، أما الإرادة فهي ناشئة عن شدة الإيمان بوجوب تحقيق ذلك الهدف، وتمتاز عن الرغبة بأنها رغبة مقترنة بأمر يجب تنفيذه، أما الرغبة التي لم تقترن بدافع آخر فأقصى ما تصل إليه هو الحماس، فإذا فتَرَ ذلك الحماس فترَتْ الهمم وقعد عن العمل. ولو ألقينا نظرة فاحصة على ما تركته هذه الحركات من مخلَّفات لا نجد فيها أثرًا للوعي ومعرفة ما تريد.

٤- أن الرابطة التي تجمع بين أفراد هذه التكتلات لم تكن رابطة صحيحة، فقد كانت تقتصر عادة على مجرد الرغبة في التكتل.

فالتكتل يبحث عادة عن أشخاص لهم مكانة في المجتمع كالطبيب والمحامي والمختار وغيرهم ممن لهم مركز اجتماعي، والعضو كذلك يبحث عن تكتل

ينتمي إليه ليعزز مركزه الاجتماعي. ولهذا نجد الكثير منهم دائم التنقل بين هذا الحزب وذاك، إما للقيام بأعمال، أو الانضواء تحت العديد من الأسماء.

قد يقال هنا إن العقيدة هي أفضل رابطة تجمع بين الناس، وهذا كلام صحيح ولكن بشرط أن تكون العقيدة هي الأساس في التكتل، فجميع أبناء هذه التكتلات مسلمون وتجمعهم العقيدة الإسلامية، إلا أنهم لم يتخذوا العقيدة أساسًا لتكتلهم، هذا من ناحية، ومن جهة ثانية فإن العقيدة الإسلامية هي الأساس الذي تم عليه التكتل عند الجماعات والحركات الإسلامية، ولكنها اتخذت كفكرة عامة فلا تكفي لأن تكون رابطة، وحيث إن هذه العقيدة فيها قابلية أن ينبثق عنها العديد من الأحكام المختلفة التي تؤدي إلى تعدد الأفهام، واختلاف النظرة للمعالجات وخطوات العمل، فإنه من البديهي أن ينشأ على هذه العقيدة نفسها كتلًا متعددة، ولهذا كان لا بد للجماعة الإسلامية الواحدة أن يكون لها ثقافة خاصة بها، أي لا بد لها أن تتبنى أحكامًا لأهدافها وخط سيرها يجتمع الجميع على هذه الأحكام فتكون رابطةً تجمعهم لتحقيق أهدافهم وتوحد خط سيرهم، فلا يكفي أن يقال إن العقيدة هي الرابط، بل العقيدة والثقافة الحزبية هي الرابطة التي تجمع بين الأعضاء، لتوحِّد الهدف ولتوحِّد العمل ولتحدد خط السير للجميع.

هذه هي الحال التي عاشتها تلك الحركات واندفعت تريد إنهاض الأمة على أساسها. فمن البديهي أن فاقد الشيء لا يعطيه، إذ قامت هذه الحركات بتفريغ

مخزونها من الحماس وانتهت بالفشل، وقام على أنقاضها حركات أخرى، وكان مصيرها كمصير سابقاتها، ولولا أن هذه الأمة معطاءة وعقيدتها عقيدة عملية تكتلية لانتهت هؤلاء الحركات إلى يأس يصيب الأمة ويميت فيها روح العمل والتكتل، وهذا ما كان يراد لها، إلا أن عقيدتها -ولله الحمد- والتي تجري فيها مجرى الدم منعتْها من الوصول إلى حالة اليأس أو اللامبالاة، مع أنها وجدت في قطاع واسع من الناس.

مع أنه كان من الطبيعي لهذه الحركات أن تفشل؛ لأنها لم تقم على فكرة واضحة محددة، ولم تعرف طريقة مستقيمة، ولم تقم على أشخاص واعين، ولا على رابطة صحيحة.

هذه هي الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل جميع الحركات والمحاولات التي وجدت في العالم الاسلامي من ناحية تكتلية، والتي أوجزناها في تلك النقاط الأربع. وأما تفصيل ذلك، فان المتتبع لتلك الحركات يجد أنها حركات إسلامية أو حركات قومية.

فالحركات الإسلامية كانت وما زالت تقوم على الدعوة إلى الإسلام بشكل مفتوح:

- فمنهم مَن يدعو إلى التزام المسلم بالعبادات وتنظيم العلاقة بينه وبين ربه ويحرم العمل السياسي، وليس له أي تصور لمجتمع إسلامي أو دولة إسلامية أو غير ذلك.

- ومنهم من يدعو إلى الإسلام بالعودة إلى الله دون تحديد.
- ومنهم من يدعو إلى الإسلام ودراسة العقيدة الإسلامية وفهم العقيدة الإسلامية.
- ومنهم من يدعو إلى الإسلام عن طريق إصلاح الفرد ليصل بالتالي إلى صلاح المجتمع.
- ومنهم من كان يرى أن طريق الخلاص والنهضة بالمسلمين هو بجعلهم أمة واحدة ترتبط دولهم بجامعة إسلامية.

وجميعهم يحاول تأويل الإسلام بشكل يتفق مع الأوضاع السائدة، والنظم القائمة، حتى جعلوا قاعدة أساسية ينطلقون منها وهي قولهم: "لا يُنكَر تغير الأحكام بتغير الأزمان". وبنوا على ذلك الكثير، حتى جعلوا أفكار الكفر الصراح أفكارًا إسلامية كالديمقراطية والحرية وغير ذلك من الأفكار، فكانت عملية تأويل أحكام الإسلام ونصوصه من الأفكار الأساسية عندهم، بحجة تقريب الإسلام إلى الأذهان، مع أن الغاية من ذلك قبول تلك النظم والأفكار والأحكام من قبل الناس وإقرارهم لها.

أما الحركات القومية، فإنه بعد أن نجح الغرب في فصل أوروبا الشرقية – دول البلقان– عن جسم الدولة الإسلامية بالأفكار القومية، غرس هذه الأفكار في نفوس العرب والأتراك قاصدًا تمزيق وحدة المسلمين وإنشاء الدول القومية على أنقاض الدولة الإسلامية، فكانت هذه الحركات تُوجَّه مباشرة من الغرب

وتعقد اجتماعاتها في لندن أو باريس وتدعو إلى النهضة على أساس القومية متخذة من أوروبا مثلها الأعلى، وكيف أن دولها قامت على أساس قومي، وأنها نهضت على أساس قومي، وأنها تخلّت عن أفكارها الدينية فنهضت. ولذلك فلا بد من إقامة الوحدة العربية لتنهض الأمة العربية على هذا الأساس، وكذلك كان الأتراك يرون أن نهضتهم يجب أن تقوم على الأساس القومي.

وجرت مناقشات حادة على صفحات الجرائد والصحف بين رجال الحركتين القومية والإسلامية حول فكرة خيالية هي: أيهما أفضل وأقرب الجامعة العربية، أم الجامعة الإسلامية؟ وكأن المشكلة هي التجزئة، مع أن التجزئة لم تكن قائمة قبل الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك فقد كانت تلك المناقشات الحادة إما جهالةً، أو لتضليل الرأي العام وصرفه عن التفكير السليم في سبل النهضة وطريقة الوصول اليها، مع أن الراجح هو التضليل، وقد وصلوا أخيرًا إلى إيجاد الجامعة العربية سنة ١٩٤٥م. فماذا كانت النتيجة؟ وهل غيّرت من الواقع شيئًا؟ إذن فقد كان القصد هو صرف الأذهان عن التفكير الجدي بالدولة الإسلامية والأساس الذي تقوم عليه نهضة الأمم.

وقامت إلى جانب الحركات القومية والحركات الإسلامية حركات وطنية في مختلف أقطار العالم الاسلامي، فكانت ردة فعل لاحتلال الكفار لبلاد المسلمين، واستيلاء الكفار على البلاد، فقامت ثورات وأعمال تطالب بالثورة والاستقلال لطرد الكافر وإبعاد قبّعة الكافر عن أرض الوطن، وتحرك الشارع

في العراق والشام وفلسطين وغيرها من أجل الاستقلال، فكانت المطالبة بتثبيت عملاء الكافر في كراسي الحكم، فعيّن الملك فيصل للعراق وعبد الله للأردن، وجمهورية في سوريا. وهكذا فقد توجهت القيادات إلى تثبيت الكافر عن طريق تثبيت عملائه في قيادة الناس وحكمهم وتثبيت أنظمته وقوانينه.

كما أن هؤلاء العملاء باستبدادهم وظلمهم وفساد الانظمة التي جاءوا بها وسوء الأوضاع الاقتصادية التي خلقوها دفعوا الناس إلى القيام بحركات أو أعمال أو ثورات أدت بالتالي إلى تثبيت أقدام الكفار وعملائهم، كل هذا بسبب غياب الفكرة والطريقة عن أذهان القائمين على هذه الحركات.

ما نؤمن به

إننا نعتقد أن الفكرة الأساسية للنهضة إنما هي مبدأ يجمع الفكرة والطريقة معًا، وأن هذا المبدأ هو الإسلام. وحين نقول النهضة إنما نعني بها الرقي الفكري. وللتمييز بين الأفكار لا بد من تحديد صفة الفكر الراقي لمعرفته، ولذلك فإننا نقول إن الفكر الراقي هو الفكر الذي يمتاز بصفتين: (العمق والشمول)، وإلا كان فكرًا منخفضًا أو منحطًا أو سطحيًا، فالفكر حتى يكون راقيًا لا بد أن يكون عميقًا يبحث في أصل الاشياء وتكوينها ومصدرها، وأن يكون شاملًا لكل جوانب المسألة المبحوث عنها. وعلى هذا حين نقول عن الفكرة الأساسية للنهضة إنما نعني بها الفكرة الأساسية التي تكون قاعدة للرقي الفكري، أي لبحث الأمور جميعها بعمق وشمول بحيث لا نترك أمرًا

دون بحث، وهذا يعني أن نبحث في الإنسان منذ بدايته وبصفته الإنسانية، وعيشه مع غيره من الكائنات الحية في هذا الكون الواسع، ومن البديهي في هذه الحالة أن البحث في الفرد يعني الأنانية، وأن البحث في الوطن يعني انحطاطا من مستوى الانسانية، والبحث في القومية يعني انخفاضًا عن المستوى اللائق بالإنسان كإنسان، والاكتفاء ببحث الظواهر والظواهر إنما يعني السطحية في البحث، فمثل هذا الانتقال بالأمة هو النهضة، وهذا لا يتأتى إلا بمبدأ، من حيث إن المبدأ كما عرّف هو عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام، وأنه فكرة وطريقة، باعتبار أن المبدأ هو معالجة الأمور وفهمها منذ البداية، فهو مصدر ميمي لكلمة "بدأ"، والبداية التي ليس قبلها أي سؤال، وبداية ماذا؟ فقولنا عقيدة يحدد ذلك من حيث إن العقيدة هي الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة، فبداية هذا الكون وهذه الحياة وهذا الإنسان، وتقرير حقيقتها من حيث إنها أزلية أم مخلوقة لخالق، وبيان علاقتها بمن أوجدها، أي ما قبلها، وتحديد علاقتها بما بعدها، إن هذا الأمر يقرر حقيقة الفكر الراقي بصفتيه العمق والشمول. فالعمق يبين ارتباطها بخالقها أو أزليتها، والشمول يدل على أن البحث قد اشتمل على كل ما يمكن أن يقع عليه الحسّ، فجعل هذا الأساس فكرة أساسية وفهمه بهذا الشكل يوجِد عند الانسان طريقة معينة في التفكير، وفي نظرته للأشياء والأحداث، وبهذا يصبح مثل هذا الإنسان إنسانًا راقيًا؛ أي: ناهضًا.

هذا ما نؤمن به، والإسلام جاء بذلك، وأرادنا أن نكون بهذا المستوى من الرقيّ، والإسلام عقيدة عقلية: فالإيمان بالله عقلي، والإيمان بأن القرآن كلام الله عقلي، والإيمان بنبوّة محمد عقلي، والإيمان بما جاء به القرآن وما جاء به الرسول من عقائد غيبية أو ما انبثق من الكتاب والسنّة من أحكام ونظم ثبت أصلها بالعقل، وقد انبثق من الكتاب والسنّة نظم وقوانين شملت كافة نواحي الحياة، وعالجت مشاكل الإنسان جميعها، وبينت كيفية تطبيق وتنفيذ هذه المعالجات، كما بينت الطريق لحمل هذا المبدأ وإسعاد البشرية على أساسه، أي: عالجت مشكلة الفرد كفرد، وعالجت المجتمع كمجتمع وكدولة ترعى شؤون الناس، ونظرت لإنقاذ البشرية كلها.

ومع كون الإسلام نظامًا عالميًا، بعقيدته ونظمه ونظرته للإنسان، إلا أنه ليس من طريقته أن يعمل له بشكل عالمي، فمن حيث الدعوة له فهي دعوة عالمية ولا شك. إلا أن العمل لا بدّ أن يتركز في قطر من الأقطار، ويكون هذا القطر هو مجال العمل، وفيه يجري السير بطريقة الإسلام في العمل؛ أي: إيجاد كتلة واعية، تأخذ على عاتقها مسؤولية القيام بأعباء الدعوة، حتى تصل إلى غايتها، ثم إيجاد شعب أو أمة تقبل بهذه النظم والأحكام، لتنفّذ عليها، ثم الوصول إلى قوة تستطيع أن تضع هذه النظم والأحكام موضع التنفيذ. فتقوم الدولة الإسلامية طبيعيًا في ذلك القطر، فتنفذ فيه أحكام الإسلام، وتبدأ بضمّ

أقطار العالم الإسلامي، وحمل الدعوة إلى العالم، هذه هي طريقة الإسلام في الوجود والانتشار، باعتباره رسالة إنسانية عالمية خالدة.

نعم، إن العالم كله مكان صالح للدعوة الإسلامية، غير أنه لما كانت البلاد الإسلامية ما زال أهلها مسلمون ويعتقدون العقيدة الإسلامية، فالدعوة فيهم لها سببان:

السبب الأول: تذكير هؤلاء المسلمين بأن إيجاد الإسلام في واقع الحياة وتنفيذ أحكامه وحمله للعالم فرض عليهم، وقد تعطّل هذا الفرض بسبب غياب الخلافة، فإعادتها فرض، وما زال في الأمة الكثير من التقاة الذين يخشون الله.

والسبب الثاني: أن هؤلاء المسلمين ما زالت العقيدة الإسلامية حية في نفوسهم، ولو أنها اقتصرت على العقيدة الروحية؛ لهذا كان الواجب أن يُبدأ بهم لتذكيرهم بتقوى الله ووجوب العمل لعودة الإسلام إلى واقع الحياة، وتوضيح العقيدة السياسية في الإسلام، ومزجها بالعقيدة الروحية، بشكل لا ينفصل أبدًا.

ولما كانت البلاد العربية جزءًا من البلاد الإسلامية وتتكلم اللغة العربية، واللغة العربية جزء جوهري في الإسلام باعتبارها لغة القرآن فهي جزء منه، وهي عنصر أساسي من عناصر الثقافة الإسلامية، باعتبار أن الثقافة الإسلامية هي ما جاءت به العقيدة -أي: النصوص الشرعية: آيات وأحاديث-، وما كانت العقيدة الإسلامية سببًا في بحثه: مثل علوم اللغة العربية، وبهذا اعتبرت

اللغة العربية عنصرا أساسيا من عناصر الثقافة الإسلامية. إذ إنه لا يمكن فهم ما جاءت به العقيدة من آيات وأحاديث إلا باللغة العربية. فلهذا كان الأولى أن يُبدأ بالبلاد العربية، هذه واحدة.

وأما الأخرى فإن البدء يكون حيث كان الشخص الذي لمعت في ذهنه هذه الفكرة، ما دام أن الإسلام لم يحدد نقطة الابتداء، فلو لمعت هذه الفكرة في ذهن أحد من أبناء الهند أو فارس لكان عليه أن يبدأ حيث هو، وهو ليس ملزمًا بأن ينتقل بدعوته إلى البلاد العربية، شريطة أن تكون اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة لفهم هذا الدين وهذه الدعوة، وكان لا بد من مزج الطاقة العربية بالطاقة الإسلامية لتتّحِد اللغة العربية بالإسلام كما أرادها الله، ولما فيهما من القدرة على التأثير والتوسع والانتشار.

أما قدرة اللغة العربية على التأثير فذلك لسعة ما فيها من المفردات التي تمكن من تصوير الواقع تصويرًا دقيقًا يؤثر في المقابل بحيث يُجسّد الحادث أو الواقع له كأنه يراه على حقيقته، فحين وضع في اللغة -على سبيل المثال- سبعين اسمًا للأسد، فقد كانت هذه الأسماء تصور الأسد في كل حالة هو فيها، وليست ألفاظًا مترادفة. إن هذه القدرة على تصوير الوقائع والأحداث لها أبلغ الأثر في المقابل، حيث إن إحساس الإنسان إنما يتأتى من إحساسه بإحدى حواسه الخمس لشيء ما، فلا نستطيع أن ندرك حرارة النار إلا بعد مسّها؛ أي: الإحساس بها بحاسة اللمس، فإمكانية تجسيد الواقع بالألفاظ بحيث يصبح

واقعًا مجسَّدًا أمامه يحسّه ويلمسه ويسمع به ويشمّه، يجعله يتصوره واقعًا مجسدًا أمامه، فإن هذا التجسيد يُلهِب المشاعر ويُذكِي الأحاسيس فيحدث التأثير، هذا من حيث التأثير.

وأما التوسع فإن ما احتوته اللغة العربية من قواعد في النحت والاشتقاق والتعريب والتشبيه، يجعلها تتسع لما يستجدّ من أشياء ووقائع وأحداث. فعملية التعريب وهي أخذ الأشياء المستجدة بأسمائها التي سميت بها، وإخضاعها فقط للميزان الصرفي لتصبح الكلمة عربية الوزن، أكثر من كافية، ولا ضرورة فيها للتعريب بالمعنى كما يظن بعض الناس وكما تقوم به مجامع اللغة العربية من جهود ضائعة، فكلمة تلفون تبقى تلفون؛ لأنها بوزن عربي، ولا يصحّ أن تُعرَّب بالمعنى كأن يقال: "هاتف"، وبهذا تبقى اللغة العربية فيها قابلية الاتساع لتشمل كل ما يمكن أن يستجدّ من أسماء وألفاظ ومعانٍ، وقد استعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب، وأظن أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تحتفظ بأصالتها في هذا الميزان الصرفي الذي يميزها عن غيرها من اللغات، وبعد خضوع هذه الكلمة أو تلك للميزان الصرفي، يصار إلى اشتقاق أفعال من هذه الأسماء، بنفس قواعد الاشتقاق العربية؛ فيقال: تلفن يتلفن تلفنة، وهكذا.

وأما الانتشار فإنها لاقترانها بالإسلام وكونها لغة القرآن ولا يقرأ إلا بها من البديهي أن تنتشر في كل قطر يصل إليه الإسلام، هذا من حيث اللغة

العربية؛ أي: من حيث الطاقة العربية، فلا يظُنَّن ظانٌّ أن عبارة الطاقة العربية يعني العرب والعروبة، بل المقصود بالطاقة العربية هو اللغة العربية ليس غير، ومزجها بالطاقة الإسلامية يعني جعلها اللغة الرسمية للأمة الإسلامية والدولة، فلا يؤذَن بإجراء أية معاملة إلا باللغة العربية.

وأما الطاقة الإسلامية وما فيها من التأثير والتوسع والانتشار:

- فمن حيث التأثير، سبق وبيّنّا أن التأثير إنما يحصل من تجسيد الوقائع والأحداث والأشياء بشكل يثير مشاعر السامع ويشدّ انتباهه فيتأثر بما يسمع، وبتعبير آخر أن تخاطب العواطف والمشاعر أولًا، ثم تنـزل الحكم على الواقعة التي خاطبت العواطف والمشاعر فيها، فحين يصف نعيم الجنة وما فيها من خيرات فكأنما ينقل السامع إلى تلك الجنة فيعيش في ظلالها، وحين يصف عذاب جهنم تقشعرّ جلود السامعين وكأنهم يحسون لهيبها، ونلاحظ ذلك في كثرة الأفعال لتقريب الفهم وتجسيد الأمر، من مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، أو قوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الجمعة: ٥]، فكيف بمن حُمّل القرآن ثم لم يحمله؟ أو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن

يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وهكذا فمن الملاحظ أن هذه الأمثلة إنما يراد منها تقريب المفاهيم للذهن، بالتشبيه، لتجسيد الواقع في ذهن السامع ليثير فيه من الأحاسيس ما يدفعه للتفكير.

- وأما التوسع، فمن المعروف أن النصوص إنما جاءت بخطوط عريضة فيها عالجت الأسس في حياة الإنسان من حيث هو إنسان، ويُستنبَط من هذه الخطوط العريضة معالجات لما يستجدّ من وقائع وأحداث، وبما أن الوقائع والأحداث دائمة التجدد، فكذلك الأحكام المستنبَطة تواكب هذه الوقائع والأحداث، وهذا يعني التوسع في الأحكام ومواكبة كل ما يستجدّ من أحداث، وبما أن النصوص التي تضمنت هذه المعالجات والأفكار الأساسية إنما هي نصوص عربية وبأساليب عربية، وفهمها وإمكانية الاستنباط منها لا بد له من فهم اللغة العربية فهمًا يمكنه من إدراك مفهومها ومنطوقها ومعقولها، لهذا كان التلازم مع إمكانية التوسع أمرًا حتميًا.

- وأما الانتشار، فمن البديهي أن الإسلام جاء يخاطب عقل الانسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لونه أو جنسه أو موطنه، فإمكانية الاعتقاد به حتمية من قبل أي إنسان؛ لأنه يخاطب قواه العاقلة، ولذلك فإن الإسلام ينتقل من قطر لآخر ومن إنسان لآخر انتقالًا طبيعيًا؛ لأن

الإنسان هو الإنسان حيثما حلّ أو ارتحل، وقد لاحظنا كيف أن الإسلام قد انتشر في أقل من نصف قرن ليشمل معظم أجزاء المعمورة المعروفة في ذلك العصر، ويستمر انتشاره مع انتقال أبنائه سواءٌ بالجهاد أو التجارة أو الانتقال الطبيعي. وقد نلاحظ كيف انتصر الإسلام حين هُزم أهله، انتصر على المغول حين هُزم المسلمون أمام المغول، فلم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى اعتنق المغول الإسلام وقاموا بنشره في الشرق الأقصى.

ونلاحظ -أو مما يجب أن نلاحظ- أنه حين حمل الإسلام ممتزجًا بالطاقة العربية جعل البلاد التي اعتنقته ممتزجًا تصبح وكأنها بلادًا عربية مثل بلاد الشام والعراق وشمال إفريقيا، وأما البلاد التي حمل الإسلام إليها منفصلًا عن الطاقة العربية فإنه لم يُحدث فيها الأثر ذاته. وكان هذا تقصيرًا من العباسيين فما بعدهم كالعثمانيين.

ولهذا نقول إنه لا بد من مزج الطاقة العربية بالطاقة الإسلامية، لما في امتزاجهما من قوة التأثير والتوسع والانتشار، ولهذا كذلك فإن من الطبيعي أن يبدأ العمل في البلاد العربية وأن تقام نواة الدولة الإسلامية في البلاد العربية، ومن ثم تقوم بضمّ بقية الأجزاء إليها من البلاد العربية أو غيرها، حتى يتم توحيد العالم الإسلامي في دولة واحدة تقوم بحمل الإسلام للعالم. إلا أنه وإن كان من المحتَّم بدء العمل في البلاد العربية إلا أنه من المحتَّم أيضًا أن تُرسَل الدعوة إلى سائر البلاد الإسلامية، وأن يُعمَل فيها ليوجَد فيها الوعي على وجوب

استئناف الحياة الإسلامية، والاستعداد للانضمام إلى جسم الدولة الناشئة، وما يمكن أن يوضَع لذلك من أساليب.

هذا ما نعتقده من وجوب إيجاد نهضة حقيقية تقوم على أساس المبدأ الاسلامي، ويصار في ذلك بالفكرة التي بيّنا.

أعني: تكتلًا يضع مبدأ الإسلام فكرة أساسية ينطلق بها في سبيل إيجاد النهضة، هذا المبدأ بفكرته وطريقته يقوم التكتل بحمله والدعوة له عالميًا، ولكنه يعمل له في البلاد العربية ممتزجًا بالطاقة العربية، حتى يتم تحقيق إقامة دولة إسلامية، تقوم بجمع بقية البلاد الإسلامية في دولة واحدة، تحمل الإسلام للعالم.

الفلسفة الحقيقية للنهضة

إن الفلسفة الحقيقية للنهضة -نعني بالفلسفة هنا: الفكرة الأساسية- هي مبدأ يجمع الفكرة والطريقة معًا، وهما لا بد من تفهّمهما لكل تكتل يهدف إلى القيام بعمل جدّي يؤدي إلى النهضة.

وحين نقول المبدأ الذي يجمع الفكرة والطريقة معًا (وقد سبق أن عرّفنا المبدأ بأنه عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام) فإن الفكرة فيه هي:

عقيدة المبدأ: أي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

المعالجات: وهي الأحكام الشرعية التي نظمت حياة الإنسان، بما في ذلك مشاكله (مثل: أحكام العبادات وأحكام البيع وأحكام الزواج وغيرها).

حمل الدعوة: وهي تبليغ الناس ودعوتهم لاعتناق عقيدة المبدأ.

وأما الطريقة فيه فهي: فهي الأحكام التي بيّنت كيفية المحافظة على العقيدة، وكيفية تنفيذ المعالجات، وكيفية حمل الدعوة.

ففي المحافظة على العقيدة: أحكام شرعية تحافظ على العقيدة، أبرزها قتل المرتدّ، وتعزير من تبدو منه أية أعمال فيها إساءة للعقيدة، مثل أخْذ العقيدة بالظن.

وفي تنفيذ المعالجات فيها ما يلي:

معالجة الحفاظ على النفس: كيفية المحافظة على النفس؛ بقتل القاتل أو الديةّ، **وفيما دون النفس:** الأرش والقصاص.

معالجة المحافظة على عقل الإنسان: كيفية المحافظة على ذلك؛ جلد السكران، وتعزير صانع الخمرة وحاملها وبائعها.

معالجة المحافظة على نوع الإنسان: كيفية المحافظة على ذلك؛ جَلْد الزاني أو رجمه وما دون ذلك.

معالجة المحافظة على النوع الإنساني: كيفية المحافظة على ذلك؛ فرض الديّة على الجبّ أو الخصي أو التعقيم.

معالجة المحافظة على كرامة الإنسان: كيفية المحافظة على ذلك؛ فرض جلد القاذف، فما دون.

معالجة المحافظة على مال الإنسان: كيفية المحافظة على ذلك؛ فرض قطع يد السارق، فما دون.

معالجة المحافظة على الأمن: كيفية المحافظة على ذلك؛ فرض قتل أو صلب أو نفي من الأرض لَمن يعيثون في الأرض الفساد.

إيجاد الإسلام في واقع الحياة: مبايعة خليفة ينوب عن الأمة في التنفيذ.

أما كيفية حمل الدعوة: فقد بيّن الشارع فيها أحكامًا كثيرة جدًا، على رأسها الجهاد وتنظيم السياسة الخارجية للأمة الإسلامية.

وحين نقول لا بد من تَفهُّمهما لكل تكتل، إنما نعني أن أي جماعة تستهدف ايجاد النهضة الحقيقية فمَن أوجب ما يجب عليها أن تفعله هو أن تفهم المبدأ بفكرته وطريقته، فلا تأخذ الفكرة دون طريقتها، وإلا كانت فلسفة خيالية، ولا تأخذ الفكرة منفصلة عن طريقتها، بل لا بد من الربط بين الفكرة والطريقة. فإذا عُلم أن طريقة تنفيذ الأحكام جملة وتفصيلا هي الدولة الإسلامية، وأن أحكام الطريقة بشكل عام إنما يقوم على تنفيذها الدولة، بل ويحرُم على الفرد مباشرة تنفيذ غالبية هذه الأحكام، إذن فالتفهّم يجب أن يشمل الدولة الإسلامية: ما هي، وما هي أحكامها، وصلاحياتها، وكل ما يحيط بها باعتبارها طريقة تنفيذ المبدأ، ولا يكفي فهم الفكرة فقط، بل لا بد من فهم الفكرة فهمًا واضحًا وفهم الطريقة كذلك، ولا بد من فهم الأحكام الموصلة لإقامة الدولة باعتبارها أحكامًا اشتملت عليها الطريقة، وهي جزء

منها؛ أي: معرفة الطريقة الموصلة لإيجاد الدولة التي هي طريقة تنفيذ الأحكام.

وباختصار أقول: أن هذا التفهّم لا بد أن يشمل ما يلي:

- فهمُ الأحكام التي تعالج مشاكل الأفراد وعلاقاتهم مع بعضهم.
- فهم الأحكام التي تعالج علاقات المسلمين بغيرهم.
- فهم الأحكام التي تقام بها الدولة أو توصل لإقامتها.
- فهم أحكام الدولة ووضع المخطط الهندسي لها؛ أي: وضع مشروع دستور لها.
- فهم علاقة هذه الدولة بغيرها من الدول.
- فهم الأساس الذي أقيمت الدولة من أجله، وهو تطبيق الإسلام في الداخل، وحمله إلى العالم.
- فهم أنه لو عُمل على نشر الإسلام وتقيّد به أبناؤه بشكل عام دون أن تكون لهم دولة، فسيبقى ٤/ ٥ الإسلام معطّلًا. ومن ذلك:

أ) إقامة الحدود.

ب) حماية الثغور.

ت) رعاية الشؤون.

ث) حمل الدعوة للعالم بالجهاد.

هذا ما نقصده من قولنا بضرورة تفهّم المبدأ مسبقًا لأي تكتل يريد النهوض بالأمة؛ أي: هذا ما نقصده بوضوح الفكرة والطريقة، حيث إننا قلنا إن من أسباب الفشل الرئيسية من ناحية تكتلية عدم وضوح الفكرة، وعدم وضوح الطريقة، فقد حدّدنا في الفكرة ما نريد ونفينا عنها الميوعة والتأرجح وأبعدنا عنها كل فكر خارج عنها من حيث تقيّدنا بما انبثق عن العقيدة من أحكام، وجعلناها واضحة بيّنة للعيان من حيث ربط كل حكم بالدليل الذي استنبط منه.

بعد هذا البيان الشافي للمبدأ وجعله متيسرًا لكل مخلص يريد السير في طريق النهضة، فإن أي تكتل يقوم على مثل هذا الوضوح وهذا الفهم لا بد وأن يكون تكتلًا مؤثرًا. وذلك بقدرته على إنزال أفكاره على الواقع الحالي مبيّنًا للأمة قُرب ذلك أو بُعده عن عقيدتها، ويستطيع أن يحرك جذوة الإيمان فيها.

كما لا بد أن يكون إنشائيًا؛ أي: يتابع ما يحصل في الأمة من أحداث ووقائع، مستنبطًا لكل حادث حكمًا جديدًا يعالج هذا الواقع، ويرتقي بالأمة من إدراكها لواقعها الحالي، إلى الواقع الذي يريد أن ينقلها اليه. يرتقي بالأمة من تفكيرها السطحي إلى التفكير العميق الذي لا يقف عند مظاهر الأشياء، بل يبحث في الأحداث وأسبابها ومسبباتها وكيفية معالجتها، محاولًا أن يوجد في الأمة طريقة معينة في التفكير.

فإذا ما سار التكتل على هذا النحو فإنه يصبح جديرًا بأن يحتَضِنَه المجتمع وهو يرى أنه القائم على مصالحه، الواعي على ما يُحاك ضده من مؤامرات، وأن يتكفّله ويقوم بحمايته إذا اقتضى الأمر؛ ذلك لأنه تكتل واعي على ما يقول. فحين يطرح فكرته إنما يطرحها بوضوح كامل قارنًا كل حكم فيها بالدليل الذي استنبط منه، بل وبكيفية الاستدلال، طالبًا من الناس أن يسألوا دائمًا عن الدليل، سواء بالأفكار أو بالأحكام أو بالآراء. فالانقياد الأعمى لا يريده هذا التكتل، ولا يسعى إليه، بل يريد قيادة واعية، وانقيادًا عن وعي وبصيرة. كذلك حين يتحدث عن الطريقة يبدو مبصرًا للطريقة، سواء كما جاءت في الكتاب والسنة، أو بما فهم من سيرة المصطفى ﷺ. ويبدو من هذا الوضوح في الرؤية والفهم للفكرة أن قضية هذا التكتل مفهومة عنده وجعلها قضيته المصيرية. قضية هذا التكتل النهوض بالأمة، وهذا لا يتأتى إلا باستئناف الحياة الإسلامية، وهذا لا يمكن إلا بإقامة دولة إسلامية.

هذا من حيث الأساس الأول في التكتل وسلوكه طريق النهضة؛ أي: من حيث الفكرة والطريقة، أما من حيث الأشخاص القائمين على هذا التكتل ووعيهم وإخلاصهم وطريقة ربطهم فلا تقل أهمية عن وضوح الفكرة ووضوح الطريقة، ولذلك لا بد من استعراض الحركات السابقة من هذا المنطلق.

ونتيجة لهذا الاستعراض وجدنا أن الحركات التي ظهرت خلال القرن الماضي كانت طريقة تكتلها فاسدة، فهي لم تقم على أساس حزبي متفهم لفكرته وطريقته، إنما قامت على أساس جمعي، أو حزبي اسمًا، والسبب في ذلك يظهر من استعراض واقع المجتمع في حينه، وتصوّر الناس له وفكرتهم عنه. ونستطيع أن نقسم ذلك إلى **مرحلتين**: مرحلة ما قبل سقوط الدولة العثمانية، ومرحلة ما بعدها.

أما مرحلة ما قبل سقوط الدولة؛ فقد كان المسلمون في ذلك الوقت يشعرون بأن لهم دولة إسلامية، على ما فيها من ضعف وهزال، وعلى اختلاف تصورها وفهم حقيقتها، بعد أن بدأت تتسرب الأفكار القومية إلى نفوس الناس، ولذلك فقد كانت الدولة هي موضع البحث ومركز التنبُّه والتفكير، ولذلك فقد كان تفكير المسلمين منصبًّا على محاولة إصلاح تلك الدولة، كلٌ بحسب تصوّره. فقد كان العرب يرون أن هذه الدولة قد هضمت حقوقهم، وظلمتهم، وأساءت معاملتهم، خصوصًا وأنهم مؤمنون بأنها دولة إسلامية، وهم مسلمون، والإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي. إلا أن وجود الفكر القومي وتسرّبه للنفوس جعل النظرة للدولة لا من زاوية أنها أساءت التطبيق للإسلام، بل من زاوية معاملتها لهم باعتبارهم عربًا، خصوصًا بعد وجود أحزاب قومية مثل حزب الاتحاد والترقّي الذي أراد بسياسته وتوجيه الغرب أن يشعر العرب جميعًا بهذا الشعور، خصوصًا وقد تبنّى سياسة التتريك، أو ما

قيل من دعايات حول ذلك، وقد ساعد على انتشار مثل هذه الفكرة فصل الطاقة العربية عن الطاقة الإسلامية؛ أي: عدم جعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية، ولهذا كان نشاط السياسيين والمفكرين من المسلمين من أبناء الأمة -العرب خاصة- يتجه إلى المطالبة بالإصلاحات، أو العدالة في المعاملة، والمساواة. وقد انتشرت مثل هذه الفكرة في نفوس الناس انتشار النار في الهشيم: "حرّية عدالة مساواة"، وهي تخفي وراءها الكثير، وهذا ما يدل على جهالة القائمين على ذلك بالنهضة وكيفية الوصول إليها.

وهذا ما كان عليه غالبية المسلمين، إلا أنه في هذا العصر بالذات بل منذ فشل الغزو الصليبي بات الغرب يفكر في أساليب أخرى لمحاربة المسلمين بل لمحاربة الإسلام، فلجأ إلى الغزو الثقافي، خصوصًا وأن الدولة العثمانية كان همّها القوة العسكرية، ولم تتنبّه لأثر الناحية الفكرية في حياة الناس والمجتمع، إما جهالةً وإما لانشغالها طيلة القرن السابق بحرب مستمرة مع العالم بكامله في حينه، إلا أن ذلك لا يغير من الواقع شيئًا، والنتيجة واحدة في الحالتين، فقد بات العالم الاسلامي يتردى في أودية الانحطاط، حتى وصل إلى ما وصل اليه من جهالة، ومثل هذا الواقع سهّل عملية الغزو الثقافي المغلّفة بالمساعدات الطبية تارة، وتارة بالإرساليات التبشيرية، وأخرى بالمساعدات الثقافية كإدخال آلات الطباعة وغير ذلك، حاملة معها سموم الدعوة القومية، والدعوة إلى الاستقلال، والانفصال وغير ذلك. هذا في الداخل، وأما في

الخارج، فقد فتحت أوروبا أبواب جامعاتها لأبناء المسلمين بحجة العلم، والحقيقة أنها كانت عملية غسل أدمغة، وتحميلهم فكر الغرب وثقافته، حتى تهيّأ لهم مجموعات من الشباب الذين أجمعوا على هدف مشترك، وهو الاستقلال والانفصال. واستطاعت فرنسا وبريطانيا أن تقيم من هؤلاء تكتلات اجتمعت على هذا الهدف، وبدأت تعقد اجتماعاتها في لندن وباريس وترعاها بريطانيا وفرنسا رعاية كاملة، ونشأ في البلاد العربية تكتلات متعددة كلها تطالب بهدف واحد هو الاستقلال عن الدولة العثمانية، حتى أوجدوا على هذا الهدف رأيًا عامًا ساعدهم على تحقيق ذلك الهدف، بل أدى في الحقيقة إلى وجود الثورة العربية، وكانت نتيجته هدم الخلافة وتمكين الكفار من بسط نفوذهم على بلاد المسلمين.

ولهذا نقول إن هذا النفَر استطاع بمساعدة الغرب أن يوجِد فكرة معينة وهي الاستقلال، وأن يبني عليها ثقافة معينة هي ثقافة الغرب، ويوحِد هدف الجميع على إقامة دولة عربية، وإزالة الهيمنة والظلم والاستبداد الذي كان يعاني منه الشعب العربي حسب رأيهم، فكانت على هذا الأساس تكتلات حزبية اسمًا، وأعني أنها أوجدت العناصر الأساسية للتكتل، ولكنها أسس غامضة أو شبه غامضة، لكنها كانت كافية لأن توحّد بين عقولهم ومشاعرهم، ثقافة أجنبية، وحقد على الدولة العثمانية بسبب الظلم، وأفكار قومية أو مشاعر

وطنية توحّدت على هدف واحد جمع بين هؤلاء الناس؛ لهذا كانت تكتلات حزبية اسمًا.

ولما تحقق للغرب هدفه من وجود هذه التكتلات والأحزاب، أنهاها باقتسامها للغنائم وتوزيع المناصب والكراسي، ونصب رجالاتها حكامًا للأمة يروّضون الأمة ويَصوغونها حسب المخطط الذي رسمه لهم.

وانتهت تلك المرحلة من حياة الأمة بهذه النتيجة المؤلمة التي ما زلنا نعاني منها.

أما المرحلة الثانية، وهي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الاولى وهدم الخلافة، فقد اتّسمَتْ بطابع آخر مختلف تمامًا عن المرحلة الأولى، فوجدت تكتلات وأحزاب تختلف تمامًا عما كانت عليه سابقاتها من حيث الأفكار والأهداف، ولكنها لا تختلف عنها من الناحية التكتلية، فقد بقيت على نفس النهج، فلم تراعي أي أساس من الأسس التي أشرنا اليها سابقًا؛ أي: بقيت على دعواتها العامة والتخبط في طريقتها، وقيام أناس بحمل تبعتها ليسوا بمستوى المسؤولية، وكانت المصالح الآنية الأنانية هي التي تجمعهم، فبقي المرض هو المرض في المرحلتين، هذا بالإضافة إلى أن هذه المرحلة اتّسمت بهيمنة الكافر وسيطرته المباشرة على الدولة وعلى الأمة، وأخذ يطبق نظامه إما مباشرة وإما بواسطة رجالاته الذين نصّبهم حكامًا على الأمة، وحاول بناء المجتمع والأمة على الأسس التي يراها هو، جاعلًا عقيدته وثقافته ووجهة نظره في الحياة هي

الأساس الذي يجب أن يُبنى المجتمع عليه، بشكل خبيث صريح حينًا وخفيّ أحيانًا، مستعملًا المال والعملاء للوصول إلى غايته.

ولإدراك الكافر لأثر الثقافة على سلوك الانسان وأفكاره فقد ركّز جلّ اهتمامه على هذا الجانب، بحيث إنه لم يترك مجالًا من مجالات الثقافة أو العلم إلا كانت وجهة نظره عن الحياة هي الأساس في ذلك، ومن المعروف أن الثقافة هي مجموعة المعارف التي يحصل عليها الإنسان بالتلقين و الإخبار ثم الملاحظة والاستنباط، وبناءً على تلك الثقافة تتكون عند الإنسان عقلية تفهم الأمور والأحداث بشكل معين؛ أي: بالكيفية التي لديه عنها مقاييس وقواعد يقيس الأمور بحسبها، فإذا كانت هذه القواعد والمقاييس هي نفس القواعد والمقاييس التي لقّنها لمثقفينا، فلا بد من إنشاء جيل يفكر حسب ما يريد هذا الكافر المتسلط، وبذلك يكون قد بنى المجتمع على الكيفية التي يريد، من حيث إن إنتاج هذا التفكير سيكوّن المفاهيم التي تسيّر سلوك الناس وتصرفاتهم في الحياة.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية جعل القواعد والمقاييس والأسس (أي: فلسفته ووجهة نظره) هي التي يُرجع إليها في عملية التفكير، وهي تتلخص بالقول: فصل المادة عن الروح وفصل الدين عن الدولة. وهذا يعني جعل الناس والمثقفين بشكل خاص يعتقدون عقيدته بأسلوب خبيث، لم يدعهم يُدرِكون أن هذه العقيدةَ عقيدةُ كفر، معززًا ذلك بقوله: الدين لله والوطن للجميع، وأن

الدين هو العلاقة بين الفرد وخالقه، أما تنظيم العلاقات بين الناس وتنظيم حياة المجتمع، فهذه أمور يقوم بها المفكرون من الناس. فالرسول يقول: أنتم أعلم بأمور دنياكم، وهذه أمور دنيا وليست أمور دين.

هذا هو الأساس الذي جعله أساسًا لمناهج التعليم، فمناهج التعليم يجب أن تًستنبط من هذه القاعدة أو أن تُبنى على هذا الأساس، بالإضافة إلى جعل شخصيته هي الأساس الذي تُنتزع منه ثقافتنا، وهذا يعني أن ننظر إلى الوقائع والأحداث كما ينظر إليها هو، كيف يعالج الأمور وكيف يتعامل مع الأحداث، وكيف كانت مواقفه في المسألة الفلانية أو تلك، فالحرية مثلًا هي حجر الزاوية في تصرفات الفرد فلا يجوز أن يُمنع أحد من أي تصرف، فحرية الكلمة والمعتقد والحريات الشخصية أمور مقدسة عنده فلا بد أن نقدّسها. أنظروا كيف ساد العالم بهذه المبادئ والأسس، فلا بد أن تتضمن الكتب الثقافية مئات الأمثلة عن مثل هذه الحوادث وكيف عالجها، كما يجب أن تتضمن كتب التاريخ والجغرافيا تاريخه هو، ولا بد أن تكون دراسة تاريخه وبداية النهضة عنده والأسس التي قامت عليها حضارته – ابتداءا من القرن الثالث الميلادي –ووضع البراءة العظمى (أو ما يسمى الماغناكارتا) أي الوثيقة التي قيّدت صلاحيات الملك– لا بد ان توضع هذه في صلب الأمور التاريخية التي تبين مدى فعالية الأمة والشعب حين يقرر شيئًا، تمامًا كما جعلوا الثورة الفرنسية منارًا يهدي السالكين، ومن أقوال إبراهام لنكولن منهاج حياة للأمم،

ناهيك عن وضع لغته لغة رسمية في الدولة، ولغة تتقاسم مع اللغة العربية حصص الدروس، وجعل أي وظيفة موقوفةً على مدى معرفة طالب الوظيفة للغة أجنبية، حتى باتت معرفة لغة أجنبية بالإضافة إلى أنها وسيلة للوظيفة والعيش عنوانًا على الحضارة والتقدم. حتى أصبح العامّيّ يحاول أن يحفظ بعض كلمات أجنبية فكأنه يريد أن يتبرّك بها ذلك ليقال عنه إنه مثقف، وميزانه في الثقافة بمقدار ما يحفظ من هذه الكلمات حتى لو كان عالمًا فقيهًا خطيبًا في المسجد الجامع فلا يغنيه ذلك عن معرفته بشيء من اللغة الأجنبية. وأما عن جغرافية بلاده فمن البديهي أن تنال الحظ الوافر من المعرفة وأن يُخصص لها كتب معينة تبين تلك البلاد وما فيها من خيرات وما تمتاز به من صفات، وما خصّها الله به من مناخ كان له الأثر الأكبر على نفسيات أهلها، حتى قالوا إن طبيعة البلاد الباردة تجعل أهله أذكياء سريعي الحركة دائمي العمل، أما أهل البلاد الحارة فانهم يمتازون بالخمول والكسل والنفسيات المريضة، وأخذنا نردد دائمًا تلك المقولة، وكأنها حقيقة قد جاء بها القرآن الكريم. وأصبحنا نعرف ما تحويه بلاده من خيرات ونعم أكثر مما نعرف عن بلادنا وبيئتنا، بل أكثر مما يعرف هو عن بلاده، مما جعل البعض يظن أن الله قد حباهم هذه النعم وفضّلهم على الناس بالفطرة، هذا بعض ما حرص الكافر على أن نحشو به عقولنا، فإن أردنا المزيد فلا بد من دراسة الفلسفة اليونانية والفقه الروماني

والفرنسي، ولا بد من معرفة أولئك الأعلام الكبار في مجال الفلسفة ابتداءًا من سقراط وانتهاءً بديكارت، وكذا في الأدب والشعر والموسيقى وغير ذلك.

وبالإضافة إلى محاولته الخبيثة المتعمدة بإعطاء صورة مشرقة عن شخصيته، فقد إدّعى أنه إنما حارب الدولة العثمانية لأنها دولة ظالمة مستبدة تهيمن على غيرها من الشعوب وتمتص دماءها، وما جاء هو إلا لتخليص العالم من هذه الشرور، فهو نصير الشعوب المستضعفة، ومعين الأمم الفقيرة، ومعلِّم الناس ومثقفهم. وأنه ما جاء إلينا إلا لرفع الظلم والجور عنا أولًا، ثم لتعليمنا كيف نستطيع أن نحكم أنفسنا، ويرشدنا إلى ما فيه خيرنا، ثم يقيم معنا علاقات المحبة والاحترام المتبادل ثم يعود من حيث أتى فلا مطمع له فينا، بل إنه ينفق الأموال ويبذل الجهود ويأتي بالعلماء والخبراء لكي ينهض بنا، ولذلك فقد سارع ببناء المدارس والمعاهد والمستشفيات في كل مدينة وفي كل قرية وفي كل حي مما جعل عامة الناس، بل الرأي العام بكامله ينظر إليه نظرة إكبار وإجلال، وجعله القدوة الصالحة التي يجب على الناس إتّباعها. خصوصًا وأن ذلك قد حصل في وقت كان فيه المجتمع في نهاية انحداره، وفي وقت كان الجهل فيه قد أطبق على البلاد، بالإضافة إلى فساد الوضع الاقتصادي، وذلك لأسباب متعددة منها: انشغال الدولة بحروب دائمة، ومنها فساد الإدارة، وسوء تطبيق النظام، والضرائب التعسفية الناشئة عن فساد النظام، والبطالة المستشرية، زد على ذلك الأسباب الخارجة عن الإرادة مثل الجدب والمحل

المتواصل لسنوات مما أوجد مجاعة في كثير من البلدان، ولما جاء الكافر إلى البلاد مدركًا ما يعانيه الناس حاول تخفيف هذه الأزمات بأعمال ظاهرها الخير وباطنها قبول الناس له والمفاضلة بينه وبين سابقه، ومن الأمثلة على هذه الاعمال الخبيثة تقديم المكافآت لمن يحسن القيام بعمل ما، فهذا المزارع أجاد في محصوله فقدم له مكافأة، وذلك أقام دعائم الارض حتى لا تجرف تربتها فقدّم له مكافأة، وعاقب هذا الذي أساء الأدب مع حماره فحمَّله فوق طاقته، كما أوقع الغرامة على ذلك الفلاح الذي لم يعالج جمله الجريح، وغير ذلك من الأعمال الملفتة للنظر، والمحدثة في الأمة أكبر الأثر، وبهذا استطاع أن يخفي وجهه الحقيقي ليبدو لنا في صورة المنقذ يتواجد الخير حيث تواجَد.

إن مسألة مناهج التعليم وبرامجه ما زالت سُبّة في جبين القائمين عليها إلى الآن، وما زال وجه الاستعمار مختفيًا وراءها أو بارزًا في كثير من الأحيان، إلا أن الكافر وقد تحكم في هذه المناهج حتى لا تفلت جزئية من جزئياتها، لا بد أن يطّلع على كل صغيرة وكبيرة فيها، وذلك بسبب ما للثقافة من أثر في حياة الناس، فإن فشل في إيجاد أجيال تحمل عقيدته وتؤمن بما يؤمن به فلا أقل من أن يوجِد أجيالًا جاهلة مشتتة الذهن ليس لها قاعدة فكرية ولا طريقة في التفكير، وبالتالي ستبقى هذه الأجيال تربة صالحة لزرع ثقافته، وتوجيهها بالوجهة التي يريدها، حتى لو أرادت الإفلات من قبضته بعد إدراكها غايته،

فهو الذي يرسم لها طريق النضال لتقع مرة اخرى في قبضته، ولكن بشكل آخر وهكذا.

بعض نتائج زرع ثقافة الكافر في بلاد المسلمين

فكانت نتيجة ما حدث؛ أي: نتيجة زرع ثقافة الكافر في بلاد المسلمين، ما يلي:

الرأي العام والمثقفون:

١- **أما الرأي العام:** فقد طغت عليه مفاهيم مغلوطة كثيرة، أدت بالمجتمع إلى حالة من انفصال الفكر عن الشعور، فهذا المجتمع الذي يعتقد العقيدة الإسلامية، ويسوده شعور بأنه مجتمع مسلم، وتتحرك أحاسيسه وعواطفه على أساس الإسلام نجده يُردِّد مفاهيم الديمقراطية ويطالب بتطبيق الديمقراطية والحرية أو بالعدالة والمساواة والاشتراكية، وغير ذلك من أفكار الكفر، فتارة ينادي بالقومية، وطَورًا ينادي بالوطنية أو الإقليمية، ومع ذلك فهو مسلم ملتزم مؤمن كل الايمان بعقيدته. وكثيرًا ما تُناقش هؤلاء الناسَ محاولًا الربطَ بين أقوالهم وبين مشاعرهم، فتسأل أحدَهم إن كان يقبل أن يزوّج ابنته لنصراني أو يهودي أو مطلَقٍ كافر؟ فيثور؛ لأن مشاعره ما زالت مشاعر إسلامية، وحين تسأله إن كان يقبل أن تتنقَّلَ ابنتُه في أحضان الشباب متمتعةً بحريتها؟! فيثور، وتسأله كيف قبل أن يطبّق عليه قانون يحمي الزناة؟! فيسكُت، ففي كل مسألة من المسائل الشرعية التي يؤمن بها لا يقبل أن تُمَسّ،

في الوقت الذي ينادي هو بنقيضها. هذه أمثلة بسيطة، تبين الانفصال بين الفكر والشعور، عند عامة الناس؛ أي: في المجتمع.

٢- وأما المثقفون: فإن انفصال الفكر عن الشعور عندهم أبيَن وأوضح. بل هم أصحاب الأثر في إيجاد هذه العلة عند العامة وفي الرأي العام. فهم نتيجة لتلك الثقافة التي تحدثنا عنها آنفًا، بُنيَت عقليتهم على عقيدة غير عقيدتهم، وتعلموا كيف يفكر غيرُهم لا كيف يجب أن يفكروا هم، حيث إن طريقة التفكير التي اتخذوها هي طريقة الكافر في تفكيره، والقواعد والأسس التي يقيس عليها الوقائع والأحداث، هي القواعد والأسس التي درسوها؛ أي: هي القواعد والأسس التي تعلَّموها في ثقافتهم، فمن البديهي أن يكون نِتاجُهُم العقلي منبثقًا من تلك الأسس والقواعد، ولهذا كان تفكيرهم كما يفكر غيرهم، لا كما يجب أن يفكروا هم كمسلمين، حيث إنهم لم يجعلوا العقيدة الإسلامية هي القاعدة الأساسية في التفكير، ولا اتخذوا من تاريخهم وواقعهم وبيئتهم مقاييس يرجعون إليها في تقييم الوقائع والأحداث، وبهذا أصبحوا عاجزين عن أن يكونوا مفكرين حقيقيين، وأصبحوا بوصفهم مفكرين مثقفين غرباء عن مجتمعهم بَعِيدِين عن مشاكله غير مدركين لحاجاته، وبذلك صار شعورهم منفصلا تمامًا عن أفكارهم وعقلهم، فهم بمشاعرهم جزء من هذا المجتمع شاؤوا أم أبَوا، ومشاكل هذا المجتمع هي المشكلة التي يُعانون منها بينهم وبين أنفسهم، وحاجات هذا المجتمع هي نفس الحاجات التي

يحتاجونها، إلا أنهم في تفكيرهم على تلك الأسس صاروا غرباءَ طبيعيًا عن الأمة وعن شعورها وأحاسيسها، وفئةٌ هذا حالُها من الطبيعي ألا تدرك قضيتها، وألا تفهم الأوضاع الموجودة في البلاد، ولا يمكن أن تعي على النهضة ولا على الطريقة المؤدية للنهضة، فإذا ما وُجد منهم ما يريد أن يتحرك للنهضة فإن تحرُّكَه هذا لا يمكن أن يوجِد التكتل الصحيح المسبوق بتفهم صحيح للنهضة -ففاقد الشيء لا يعطيه-.

هذا هو الواقع الذي وُجد بعد احتلال الكفار لبلاد المسلمين، والنتيجة التي وصلنا إليها بسبب هيمنة الكفار وتوجيههم للرأي العام، وفرضهم مناهج التعليم التي يريدون، فتعقدت المشكلة أمام مَن يريد الإصلاح والنهوض بالأمة من كبوتها، فبعد أن كانت المشكلة هي النهوض بمجتمع مسلم على أساس العقيدة الإسلامية، أصبحت الآن أكثر تعقيدًا، إذ إنه لا بد من إزالة هذا الانفصام بالشخصية، ومحاولة إيجاد التناسق بين فكر الأمة وشعورها، وإيجاد التناسق بين فكر المثقفين وشعورهم، وإيجاد التناسق بين الأمة وأبنائها من المثقفين الذين أمسوا غرباء عنها، نعم أصبحوا غرباء عنها؛ والسبب في ذلك أن هؤلاء المثقفين قد أخلصوا للفكر الأجنبي -ولو أنه خال من الشعور- مما جعلهم يشعرون أنهم غرباء عن هذا المجتمع، بل إنهم باتوا يحتقرونه ويعيشون في عزلة عنه وينقِمون على الحياة التي جعلتهم ينتمون إلى هذا المجتمع، وترى أن أحدهم وبمجرد اصطدامه بأية مشكلة اقتصادية أو

اجتماعية أو سياسية قفَلَ راجعًا إلى أوروبا إن وجد إلى ذلك سبيلا. أو باتَ يتحسَّر إن لم يستطع، وتجده لا يكترث بما يلحق بالمجتمع من آفات ومصائب، هذا إن لم يقف متشَفِّيًا، وإننا نرى بأم أعيننا اليوم مدى تعلق الناس بحب الهجرة والذهاب إلى تلك البلاد وترك بلادهم ومجتمعهم، متذرِّعِين بسوء الأوضاع السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، غير عابئين بما تعانيه أمتهم ومجتمعهم من مصائب أو كوارث أو أوضاع، يسود فيها الظلم السياسي وارتباط حكامه بالأجنبي والتعامل معه.

وقد عمَّ البلاء الآن، فبعد أن كان الأمر مقتصِرًا على فئة المثقفين أصبح الآن أمنيةً عند عامة الناس، فترى عائلات بكاملها تهاجر إلى ألمانيا أو السويد أو النمسا أو غيرها من البلاد الأوروبية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنك تَلحَظُ ذلك الاحترام الكبير في النفوس للأجنبي، سواءٌ فيما يبثّه من سموم عبر وسائل إعلامه أو ما يصدر عنه أو بمشاهدته أو لقائه في الشارع أو في الدكَّان أو في السكن أو في أي مجال من مجالات الحياة، وكأن لقاءه أو الحديث معه يُكسِب ذلك الشخص مكانة سامية، إن هذا الأمر كذلك لم يقتصر على المثقفين، بل تعدَّاه ليشمل عامة الناس، ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [النساء: ١٣٩]. هذه هي حال المجتمع وحال المثقفين. ومَن كانوا هذا هو حالهم؛ كيف يمكن لهم أن يتصوروا أوضاع بلادهم على حقيقتها، ومعرفة ما يمكن أن ينهض بها؟، ولذلك فإنه حين يتصور أوضاع بلاده إنما يتصورها

تقليدا للأجنبي في تصوره أوضاع بلاده، لا يستطيع أن يفرق بين بلده الرازِح تحت حكم الاستعمار وتوجيهه، و البلد المستعمر الذي يتحكم بخيره ويسعى لبسط هيمنته ونفوذه على غيره، فإذا ما طُرح الحديث عن النهضة ووسائل وسبل الانتقال بالأمة إلى الوضع الأفضل يتحدث مرددًا العبارات التي أُملِيت عليه، فتجده يقول: إن آفة مجتمعنا الفقر والجهل والمرض، هكذا قيل له فهو يردد ما يقال، ويقول: إن أسباب التخلف الذي نعاني منه هي كبت الحريات وعدم تطبيق الديمقراطية والاشتراكية، ويتشدّق باستعمال ألفاظ الإمبريالية والرجعية دون أن يعي مدلولات هذه الألفاظ ومعانيها، وأما أحاسيسه فإنها لا تتحرك على أساس المبدأ، إن لم أقل أنه لا يعرف له مبدًا، فقد تتحرك من أجل الوطن، وأسوق على ذلك مثالا بسيطا: إن مدينة الرمثا الأردنية تبعد عن مدينة درعا السورية بضعة كيلومترات، وكلاهما ينتسب إلى عشيرة واحدة تقريبا -آل الزعبي-، ومع ذلك لو قام اليهود مثلا بالاعتداء على **طرطوس** أو **اللاذقية**، فإن مشاعر أهل **الرمثا** لا تتحرك لها، بينما تلتهب مشاعر أهل **درعا** لذلك. في حين لو قامت اسرائيل بالاعتداء على **الرمثا** نفسها، فلا تهتز لها مشاعر أهل **درعا** أو العكس، ولو جرى اعتداء من الكفار على تركيا أو أندونيسيا أو غيرها من بلاد المسلمين فإن الأمر لا يعنيهم، وهناك ما هو أسوأ من ذلك، فإن اعتداء الكفار على الوطن أو الشعب قد يثير المشاعر ويحرك الأحاسيس، أما الاعتداء على المبدأ فإن الأمر لا يعنيهم وللبيت رب يحميه،

وحتى حين يثور من أجل الوطن أو الشعب فإن ثورته تلك لا تكون ثورة صحيحة وتضحيته لا تكون كاملة، ولو استعرضنا الثورات المتتالية التي تحركت فيها الأمة منذ أن فرض الاستعمار هيمنته على البلاد؛ فإننا لا نجد فيها ثورة واحدة كانت مدركة للأوضاع السائدة والظروف القائمة، مع أن في هذه الثورات ثورات مخلصة، إلا أن عدم إدراكها لما تريده وعدم إحساسها بحاجة الناس إحساسا حقيقيًا جعلا مصيرها جميعا الفشل الذريع، أما الحركات والانتفاضات التي حدثت مطالبة بالنهضة فإنها كانت ردّات فعل لصدمة حدثت أو قرار اتُّخِذ أو ضرب مصلحة أو تقليدًا لغيرهم من الأمم والشعوب، هذا مع افتراض ثورة أحدهم، ولذلك لا تلبث أن تزول هذه الثورة، إما لزوال أثر هذه الصدمة بانطفاء الحماس، وإما باستنزاف ذلك الحماس بمظاهرة صرخَ فيها وهتف، وعبّر عن مشاعره بضرب حجر أو شتم مسؤول أو هتف بشعار، إلى غير ذلك من أعمال صبيانية، وإما بإلقامه وظيفةً تتناسب مع حجمه ووزنه في المجتمع، أو تعيينه في مؤسسة من المؤسسات التي تُرضِي نزعاته، أو إعطائه وكالة أو مصلحة تُدِرّ عليه ربحًا معينًا، وقد تصطدم هذه الثورة بأنانيته ومَصالِحِه بحيث يشعر بالخطر على مصلحته أو نفسه، أو قد يلحقه منها الأذى كالسجن أو غيره، فيخلد إلى الراحة، بل قد يصبح أحدَ أعمدة النظام القائم ودعائمه، وقد يصبح جاسوسًا على من كان إلى جانبه في ثورته.

ومَن كان هذا حاله فإنه لا يمكن أن يقوم على عاتقه تكتل صحيح، فهو ليس أهلا للاضطلاع بالمسؤولية، ولذلك لا بد أن يعالج معالجة أساسية بإيجاد التناسق أولًا بين فكره وشعوره بتثقيفه ثقافة مبدئية صحيحة، ومعنى ذلك أن التناسق بين الفكر والشعور إنما يتأتى من كون الشعور منبثقا عن العقيدة، فيكون إحساسا فكريا وشعورا حقيقيا، فالفكر حين يتركز في النفس تنبثق عنه حتمًا مشاعر وأحاسيس تتناسق مع ذلك الفكر المتركز في النفس، وليس أقوى مطلقًا من فكر له قاعدة أساسية بني عليها كالعقيدة، وعملية تثقيفه بهذه الثقافة ليست عملية سهلة يُلقَّن فيها معارف ومفاهيم لا تُحدِث في نفسه الأثر، بل لا بد من افتراض أنه خالٍ من كل فكر، ويصار إلى تكوين عقليته تكوينا جديدا؛ أي: أن نوجد عنده طريقة معينة في التفكير، وذلك بإيجاد قناعة مطلقة عنده بمجموعة قواعد ومقاييس منبثقة من أو مبنية على عقيدته، شريطة أن يُعادَ جلاء الغموض عنده عن أفكار العقيدة وما علق بها من غاوات. بحيث تصبح العقيدة عنده يقينية، والأفكار المتعلقة بها أفكارًا حقيقية صادقة، مما يؤدي حتما إلى إحساس صادق، ومشاعر متناسقة مع هذه العقيدة، وبهذا يتم التناسق بين فكره وشعوره، ومن ثم يُنتقَل لإيجاد التناسق بينه وبين مجتمعه.

أما موضوع التناسق بينه وبين المجتمع، فإن وضوح المفاهيم والأفكار المنبثقة عن هذه العقيدة تجعله يؤمن بأنه فرد من هذه الأمة، وعضو من أعضاء هذا المجتمع، كما ينبثق عنها مفاهيم تُحتِّم عليه أن يُسهِم في إنهاض هذه الأمة وأن

يعمل على رفعتها، وهذا يتم ببيان النصوص التي جاءت بها العقيدة؛ مثل قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **"مَن بات ولم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"**، وما يفيد هذا النص وغيرُه من النصوص التي توجب عليه العمل لإنهاض الأمة. وبذلك يسهُل حل مشكلة النهوض بالمجتمع، ولولا وجود الثقافة الأجنبية والأشخاص المضبوعين بها، لكانت النهضة أقل تكاليف مما هي عليه الآن.

هذا من حيث الأمرين اللذين تحدثنا عنهما، وهما: الفكرة والطريقة، وعدم وضوحهما وأثرهما في المجتمع، ثم الأشخاص وطريقة الربط بين أعضاء التكتل. فكيف يمكن إيجاد تكتل صحيح مع هذا الواقع الفاسد من عدم فهم للفكرة أو الطريقة، أو على الأقل سوء فهم للفكرة أو للطريقة، وكان الأمر يقتصر أحيانا على فكرة عامة وتوحيد هدف لا غير، أما الأشخاص، وطريقة الربط، فقد بيّنّا أي نوع من الأشخاص كان مثقفو الأمة، وأي مجتمع كان ذلك المجتمع الذي حطّموا فيه الأسس التي يقوم عليها.

ولذلك فإنه من المستحيل أن يوجَد تكتل صحيح مع وجود هذه الثقافة الأجنبية، ولا أن يوجد على أساسها تكتل صحيح كذلك؛ أي: مع وجود هذه الثقافة في المجتمع، وتشويه مفاهيم الناس عن الحياة، فإنه يتعذر وجود تكتل صحيح في مجتمع انفصل فكره عن شعوره، كما أن وجود هذه الثقافة لا يصلح

لإقامة تكتل على أساسها، من حيث إنها ثقافة تخالف عقيدة الأمة ومجموعة القيم الصادقة التي ما زالت تحتفظ بها في مركز إيمانها.

ولم يكتفِ الاستعمار بهذه الثقافة، بل عمل على إفساد الأجواء العامة وتسميمها بأفكار وآراء فلسفية وسياسية أفسد بها وجهة النظر عند المسلمين، وأفسد بها الجو الإسلامي، وبَلْبَلَ الفكر لدى المسلمين بلبلة ظاهرة في مختلف نواحي الحياة.

أما تسميم الجو بأفكار وآراء فلسفية وسياسية أفسدوا فيها وجهة النظر الصحيحة عند المسلمين، فقد نشروا قاعدة: (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان)، وفكرة: (أن ما لا يخالف الإسلام فهو من الإسلام)، وفكرة: (الدين لله والوطن للجميع)، وفكرة: (أن السياسة دجل وخداع)، وفكرة: (أن الأحزاب يُحرِّمها الإسلام)، وفكرة: (كما تكونوا يولَّى عليكم)، وغير ذلك من الأفكار والآراء مثل: أن الديمقراطية من الإسلام، أو على الأقل لا تتعارض مع الإسلام، ومثلها الحرية. وقد قال عمر بن الخطاب: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" حيث تسميم الأجواء وإفساد وجهة النظر، وأما من حيث بلبلة الفكر، فمنه (أن الجهاد حرب دفاعية) و (أن الإسلام ما أعلن حربًا مبتدِئًا، إلا حربًا وِقائية)، و (أن الديمقراطية هي الشورى)، و(أن الشورى هي نظام الحكم)، و(أن الزكاة هي النظام الاقتصادي في الإسلام)، و(أن طريق الصلاح هي العودة إلى الله)، و(أصلح

نفسك يصلح المجتمع)، أو(الفرد فالأسرة فالمجتمع). حتى بلغ الحال بالقول: (إن الاحتكام لكافر عادل والرضا بحكمه جائز، بل أفضل من الاحتكام إلى المسلم الظالم). وقد أفتى بعضُ أعوان الكفار مثل الشيخ محمد عبده بوقف الجهاد، ووجوب مساعدة الدولة البريطانية على أعدائها لأنها أقرب الأمم إلى الإسلام، وأنها أمة عادلة فمساعدتها واجبة، ذلك بالإضافة إلى أفكار الاستقلال والتحرر، التي من شأنها أن تدفع الناس للقيام بأعمال يستطيع الكافر المحتل أن يتحكم بها ويوجهها إلى الوجهة التي يريد ما دام أن مركز التنبُّه عند الأمة قد أُبعِد، وفقدَتْ تصوُّرَها لقضيتها، وأُبعِدَت فكرة إقامة دولة إسلامية، فما دام هذا الأمر قد أُبعِد فلا بد من إشغال الأمة بنفسها، ودفعها للقيام بأعمال تستنزف ما عندها من مخزون الحماس، فتتحرك حركة المذبوح، فلا تلبث أن تسقط فاقدة القوة والحيوية والحياة، وذلك مثل محاربة وجود القبعة الأوروبية وطرد الجيوش الأجنبية، حتى إذا اندفعت الأمة في مثل هذا الاتجاه اختفت القبعة وراء الكوفيَّة والعقال، وناب عن الجندي الإنجليزي الجندي أو الشرطي المسلم في تنفيذ ما يريده الإنجليز!

ومن جرَّاءِ جعْلِ شخصيته -أي: شخصية الكافر- هي المثل الأعلى عند المسلمين، ولظروف التنافس بين الكفار في امتصاص دماء المسلمين، صارت الاستعانة بالكفار أمرًا طبيعيًا، بل أمرًا لا بد منه، فقد عمد الفرنسيون إلى مساعدة الفلسطينيين في ثورتهم، كما عمد الإنجليز إلى مساعدة السوريين

واللبنانيين في ثورتهم، وهكذا. وبات من المؤكد عند السياسيين أنه لا يمكن تحقيق أي هدف أو الوصول إلى أية غاية بدون الاستعانة بالأجنبي. وكأن الاستعانة بالأجنبي أصبحت حكمًا من أحكام الطريقة، تمامًا مثل الدعاية التي تقول إنه لا يمكن أن يصبح شخص وزيرًا أو نائبًا في البرلمان أو وكيلًا لشركة كبيرة إلا إذا كان ماسونيًا، مما دفع أصحاب الطموح إلى البحث هم بأنفسهم عن الماسونية ومحافلها لعلها تحقق لهم ما يطمحون إليه. وكذا العملاء فإنه بات من المؤكد عندهم أنه لا يمكن الوصول للحكم أو لكرسي من كراسي الحكم أو المصالح الكبرى إلا إذا استعان بالأجنبي، مما جعل أكثر التكتلات تستعين بالأجنبي أيًا كانت جنسيته، ومهما كانت أطماعه، وأخذت وسائل الإعلام بالدعوة والدعاية لهذا دون اعتبار أو إدراك أن هذه خيانة عظمى، وأن ربط قضيتنا بغيرنا إنما يعتبر انتحارًا سياسيًا، هذا إن كنا ندرك أن لنا قضية، أو إن أدركنا ما هي قضيتنا، ففي كل الأحوال يعتبر انتحارًا سياسيًا؛ والسبب في ذلك أن الانتحار هو أن يعمد الإنسان إلى قتل نفسه، والكتلة أو الشخص الذي يجعل قضيته بيد غيره، كأنه انتحر سياسيًا؛ أي: قتل نفسه سياسيًا؛ لأن قضيتي هي قضيتي وحدي، ومن البديهي أن تخالف وتتناقض مع كل قضايا الآخرين، ووضعها بيد غيري إنما يعني أنني لن أصل لتحقيق قضيتي، فالأجنبي لا يمكن أن يعينني على قضيتي التي من أولى أهدافها أن أطرد الأجنبي، فهل يمكّنني أو يساعدني الأجنبي على تحقيق قضية من أهدافها

الأساسية طرده من البلاد!؟ لذلك نقول إن وضع القضية بيد الأجنبي إنما هو انتحار سياسي، ومقضيٌّ على هكذا تكتل بالموت أو الفشل أو خيانة الأمة، ولهذا فإنه لن يكون هناك نجاح لأي تكتل تسمم فكره بالاتكال على الاجنبي أو الترويج له.

وكذلك سُمِّم المجتمع بالوطنية، والقومية، وبالاشتراكية، كما سمّمه بالإقليمية الضيقة وجعلها محور العمل الآنِيّ، وسمّمه كذلك باستحالة قيام الدولة الإسلامية، وباستحالة وحدة البلاد الإسلامية؛ وذلك لِمَا غرسَه في النفوس من عداء شعوب العالم الإسلامي لبعضها، عداءً إقليميًا وعداءً وطنيًا وعداءً قوميًا، أو بما يدَّعِيهِ من وجود الاختلاف المدني، والعنصري، واللغوي، مع أنها جميعًا أمة واحدة تربطها عقيدة واحدة هي العقيدة الإسلامية التي ينبثق عنها نظامُها، وسمّمه أيضًا بالأفكار السياسية المغلوطة مثل قولهم: (خذ وطالب) ومثل: (الأمة مَصدَر السلطات) ومثل: (السيادة للشعب)، مع أن الذي يجب أن يكون واضحًا، ولا يغيب عن الذهن لحظة واحدة، هو أن السيادة للشرع وليس للشعب. ولا بد من التركيز في الأذهان أن السيادة للشعب هي فكرةُ كُفرٍ، وتعني: جَعلَ الشعب إلهًا يشرّع للناس نظمهم وقوانينهم، وأن السيادة للشعب هي العقيدة الرأسمالية، وتمارسها الشيوعية كذلك، فالشعب عند الشيوعية أو ممثلو الشعب هم الذين يضعون التشريعات، وكذلك في النظام

الرأسمالي، فإن مجلس النواب ويسمى السلطة التشريعية هو الذي يضع النظم ويسن القوانين.

أما ما جاء في العقيدة الإسلامية فهو أن التشريع؛ أي: وضع النظُم وسَنّ القوانين وتسيير حياة الفرد والمجتمع إنما هو من عند الله، وليس للإنسان إلا فهم ما جاء في الكتاب والسنة ليستنبط الأحكام التي تبين له النظم، وتوضح له القوانين بأحكام شرعية ليس للمسلم أن يستغني عنها، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥]. فلو كانت هذه الفكرة واضحة في الأذهان محتلة مركز الإيمان عند الأمة لرفضت الأمة أية تشريعات وضعها أي إنسان سواء أكان مجلس الشعب (البرلمان) أو أية جهة أخرى، لكن تسميم أفكار الأمة بمثل هذه الفكرة جعلها بعيدة كل البعد عن إسلامها مع إيمانها به.

كما سممه بأفكار خاطئة مثل قولهم (الدين لله والوطن للجميع)، ومثل (توحّدنا الآلام والآمال)، ومثل (الوطن فوق الجميع)، ومثل (العزة للوطن)، وما شابه ذلك.

وسمّمه أيضًا بالأفكار الواقعية الرجعية؛ مثل قولهم: (إننا نأخذ نظامنا من واقعنا)، ومثل: (الرضا بالأمر الواقع) ومثل: (يجب أن نكون واقعيين)، وما شاكلها.

أما قولنا الأفكار الرجعية والواقعية، فإن كلمات: رجعية، أفكار رجعية، هؤلاء رجعيون، الدول الرجعية، فهي كلمة مضللة، ومصروفة عن حقيقة معناها، والذين يرددونها اليوم إنما يقصدون بها الأفكار القديمة المغرقة في القدم، ويعنون بذلك الإسلام، ويتهمون المسلمين بأنهم رجعيون، أي أنهم في معتقدهم ومعالجاتهم ونظمهم، ونظرتهم للحياة، إنما يعودون للماضي؛ أي: يرجعون للماضي، فهم رجعيون بهذا الرجوع، هذا ما يقصده أولئك المضلِّلون والمضلَّلون، ولهذا كان لا بد من تحديد معنى هذه الكلمة وتوضيح حقيقتها، أما حقيقة معناها: (فالرجعية تعني تسيير الحياة بحسب الرجع الغريزي، ووضع النظم والمعالجات بناءً على الرجع الغريزي)، فمن أعطى الحرية للغرائز، وجعل الحرية قانونه الأساسي الذي تُستنبط منه كافة القوانين المنظمة للحياة، كان هو الرجعي لأنه نظم حياته بناءً على الرجع الغريزي، وترك السيادة للغريزة تتحكم في الحياة، ورأى السعادة في الحصول على أكبر قدر ممكن من المتع الجسدية؛ أي: في إشباعات الغرائز، هذا هو المعنى الحقيقي لكلمة رجعية، وأما ما ذهبوا إليه من معنى وهو الرجوع إلى مخلفات الماضي لتنظيم الحاضر، وأرادوا بها الطعن بالإسلام والمسلمين، فلنعد إلى الماضي البعيد؛ أي: إلى ما قبل الإسلام، ولننظر إلى حياة الإنسان في ذلك الوقت كيف كان ينظمها؟

لقد كان الفرد قبل الإسلام منطلقًا في إشباع جَوعاتِه الغريزية إلى أكبر قدر ممكن، دون قيد أو مراعاة لقانون؛ أي: أنه كان يباشر حريته المطلقة تمامًا كما ينادي هؤلاء الناس اليوم، وكان بذلك رجعيًا مسيرًا بالرجع الغريزي.

فجاء الإسلام وأخذ بيد الإنسان وميَّزه بعبوديته لله، وجعل أفعاله جميعها مقيدة بأوامر الله ونواهيه، ونظم حياته بنظم وأحكام وقوانين شرعها له، فخطا به خطوة واسعة إلى الأمام، وأنقذه من عبوديته وانقياده لغرائزه، وجعل له حق ممارسة الإرادة، وبين له الطريق القويم المؤدي إلى تحقيق السعادة له والحصول على رضا سيده ومولاه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

مثال: كانت الفتاة السافرة المتبرجة تمارس حياتها الجنسية كما يحلو لها، وبقيت هذه حال القبائل والشعوب التي لم تعتنق الإسلام أو غيره من الأديان السماوية التي جعلت للإنسان كرامة، ثم جاء الإسلام وجعل لهذه الفتاة كرامة ومنزلة ورفعها إلى مستوى أم وربة بيت وعرض يجب أن يصان، ويكفيها فخرًا أنه أجاز للمسلم أن يقتل أو يُقتل دفاعًا عن شرفها وكرامتها، وجعل عقوبةً تشبه القتل لمن اتهمها مجرد اتهام بالفاحشة.

واليوم، يصف هؤلاء -التقدميون- الإسلام بالرجعية ويرجعون إلى حياة ما قبله من عصر، حريصين على السير بحسب رجع غرائزهم، فتصبح الفتاة متعةً للشابّ، ولا قيد عليها يمنعُها من ممارسة إرادتها في كل ما يُشبع غريزتها، شرطَ أن تكون قد اجتازت سن الرشد، وألا تكون مُكرَهة على ذلك، فأي

الفريقين أحق بالأمن؟ أي الفريقين الرجعي؟ هذا ما تعنيه كلمة رجعية وأفكار رجعية.

وأما كلمة الواقعية، مثل قولهم: (علينا أن نكون واقعيين) أو (إننا نأخذ نظامنا من واقعنا) فإنما يعني أن يكون الواقع هو مصدر التفكير، بدلًا من أن يكون موضع التفكير، نعم إن الإسلام واقعي؛ أي: أنه ليس خياليًا، كما أنه ليس لعصر من العصور وإنما هو أحكام عملية تعالج الواقع الموجود، وما على العالم إلا فهم الواقع والتفقّه فيه ومعرفته معرفةً دقيقة. ثم البحث في النصوص التي لها علاقة بهذا الواقع، ومن ثم استنباط المعالجة لهذا الواقع، هذا ما نعنيه بقولنا أن الإسلام واقعي؛ أي: جعل الواقع موضع التفكير، أما مصدر التفكير فيه فهي مجموعة النصوص التي جاءت بها العقيدة، والقواعد الأصولية التي انبثقت عنها، ومجموعة الأفكار التي بنيت على تلك العقيدة، أما الواقعية المذكورة فهي التي تجعل الواقع مصدر تفكيرها، فتأخذ أحكامها من الواقع، وتكيف نفسها وسلوكها حسب الواقع، فلا تسعى لتغيير الواقع، بل تغير سلوكها بحسب الواقع، وللأسف أصبح من القواعد الأساسية في أذهان الناس كلمة (الرضا بالأمر الواقع)، ويعتبرونها تقدمية، فيقولون إن سياسة أمريكا تقوم على الأمر الواقع (البرجماتية)، وعلى هذا عرفوا السياسة بأنها: فَنُّ الممكنات؛ أي: التعامل مع الواقع لجعله على خير وجه فيه، بينما الواقع الذي نراه إنما هو (ليست السياسة فن الممكنات)، بل هي اختيار أفضل الممكنات؛

أي: هي فعالية مؤثرة في الممكنات لتحقيق ما نريد بغض النظر عما إذا كانت هي الأخفّ أو الأسهل أو الأصعب، إذ يجري التعامل مع الواقع لتغييره إلى ما نريد، لا لنرضى به ولو في أفضل حالاته، إن كان خلافًا لما نريد.

هذا هو معنى قولهم علينا أن نكون واقعيين، أو أن نرضى بالأمر الواقع، أو أن نأخذ نظمنا من الواقع، فكلها تعني معنى واحدًا هو أن الواقع مصدر تفكيرهم.

أما ما يجب أن يكون فهو جعل الواقع موضع التفكير، والإسلام إنما يتعامل مع الواقع لتغييره إلى الهيئة التي جاء الإسلام بها. ومن هنا نقول: الإسلام واقعي، أي أنه أحكام عملية منزلة على الواقع لتغييره إلى الهيئة التي أمر الله بها، فأحكامه ليست مستمدة من الواقع، ولا هي معالجات مثالية ليس لها واقع، بل إن أحكامه معالجات عملية لا بد من تغيير الواقع بحسبها.

هذا معنى القول الأفكار الواقعية، أما ما يؤدي إليه وجود مثل هذه الأفكار فهو اليأس والاستسلام والرضى بالأمر الواقع، من مثل هدم الخلافة، واستبعاد عودة الدولة الإسلامية، والقبول بالتجزئة، وغير ذلك، ونتيجة لذلك فان المجتمع في العالم الاسلامي ومنه البلاد العربية اصبح على حالة لا تمكن من إيجاد تكتل صحيح، وكان من البديهي أن تخفق كافة الحركات والتكتلات الحزبية اسما؛ لأنها لم تقم على أساس فكر عميق يؤدي إلى تنظيم دقيق وإعداد موثوق به، بل قامت على غير أساس، ومما يؤسَف له أنها ما زالت

حتى اليوم لم تحاول أن تجعل لها أساسًا بالرغم من ثبوت الفشل، ومن الطبيعي كذلك أن تكون هذه الأحزاب والتكتلات الحزبية أحزابًا مفككة؛ لأنها قامت على غير مبدأ، ومَن تتبَّعَها يرى أنها قامت على أساس مناسبات طارئة أوجدَتْها ظروف اقتضت قيام تكتلات حزبية، ثم ذهبت هذه الظروف، فذهبت بذهابها تلك الأحزاب أو ضعُفت وتلاشت، والأمثلة على ذلك كثيرة، أسوق منها على سبيل المثال لا الحصر: ما حصل في الأردن ١٩٥٦؛ فقد اقتضت الظروف في حينه فسحَ المجال أمام الأحزاب للعمل، وذلك للظرف السائد من انتشار الناصرية، وارتفاع درجة الحرية والتحرر في البلاد، فأجازت الدولة العمل الحزبي، فوجد في الأردن سبعة أحزاب مجازَة رسميًا، فلما انتهى الظرف الذي وُجِدتْ من أجله، بافتعال مؤامرة قام بها ضباط من عملاء القصر (علي الحياري وعلي أبو نوار)، وفُرضتْ بسبب ذلك الأحكام العرفية، وجُمِّد النشاط السياسي، وإذ بالأحزاب تنتهي، أو تضعف وتتلاشى، وما حصل في الأردن دائم الحدوث في كافة أقطار العالم الإسلامي، فبالأمس القريب أعلن ضياء الحق رئيس جمهورية باكستان إلغاء الأحكام العرفية أو ما يسمى بلغتهم (Marshal Law)، كما أجاز العمل السياسي الحزبي، فتشكَّل في البلاد العديد من الأحزاب أُجيز منها رسميًا أحدَ عشر حزبًا، لم يكن لغالبيتها وجود، فكيف تم تشكيلها بهذه السرعة، لولا أنها قامت على مصالح آنية أنانية. أو أنها تمت بين مجموعة أشخاص تربطهم صداقات أو منافع أرادوا

تحقيق مصالحهم عن طريق التكتل السياسي، وبهذا لم يكن بين هؤلاء الأشخاص رابطة حزبية صحيحة، ولم يكن تكتلهم على أساس مبدئي.

أثر التكتلات السابقة

إن هذه التكتلات بالرغم من كثرتها، وتعاقب وجودها، وما تبذله من جهد ونشاط؛ فإن وجودها لم يكن خاليًا من المنفعة فحسب، بل كان ضارًا بالأمة، وذلك لأن:

- وجودها في المجتمع يحُول دون وجود التكتل الصحيح، أو يؤخِّر وجودَه على الأقل، فالمسلم بطبعه وعقيدته ميَّال إلى التكتل والعمل الجماعي والحركة، فإذا ما وجد أمامه هذه التكتلات وانخرط فيها وتأثر بأجوائها واستنزفت منه الطاقة الدافعة للعمل، ووصل إلى نتيجة أسوأ من النقطة التي بدأ منها، كفر بالأحزاب والتكتلات، حتى سيطر على أذهان العامة أن وجود الأحزاب ضرر فظيع بالأمة، وملأ الشك قلوب الناس.

أصبح الناس ينظرون بحذر شديد إلى كل حركة حزبية حتى لو كانت صحيحة، وما أسهل أن توجد الاتهامات لأي تكتل يبرز في المجتمع، وذلك لما عهِدَه الناس في الأحزاب والتكتلات السابقة.

نتيجةً لقيام هذه الأحزاب على مثل ما ذكرنا من الروابط وطبيعة عملها في التنافس على المصالح وتحقيق المطالب أو قيامها على أفكار عشائرية أو إقليمية أو وطنية فإن وجود الصراع بينها أمر حتمي، مما يورث الحزازات والأحقاد،

ذلك لأن أيًا منها ليس عنده ثقافة معينة أو أفكار معينة يصارع الآخرين بحسبها، فالنتيجة الطبيعية وجود الحزازات والأحقاد.

ما دامت هذه الأحزاب قد وجدت من أجل تحقيق المنافع والوصول إلى المكاسب فمن البديهي أن تنتقل هذه الأفكار المنحطة إلى أعضائها، وبالتالي إلى المجتمع الذي وجدت فيه، وحين ترى الفرد فيها يتنقل بين حزب وآخر سعيًا وراء هدف يطلبه أو منصب يرغبه فإن وجود فكرة النفاق والدوران حول المصالح والتذبذب في العمل نتيجة طبيعية لهذا الحزب.

لهذا كله فقد أفسدوا على الجمهور طبيعته النقية، وغرسوا فيه أفكارًا سيئةً صارت عبئًا جديدًا على أي تكتل صحيح يظهر في مثل هذا المجتمع، وكما قلنا ما دامت عقيدة المسلم تدفعه للتكتل والعمل الجماعي وتحرم عليه الاستكانة، فإن حتمية وجود التكتل الصحيح مسألة وقت، فلا بد من ظهور هذا التكتل الصحيح.

وقامت إلى جانب الحركات الإسلامية والقومية والوطنية حركاتٌ شيوعية تقوم على أساس المادية، وكانت هذه الحركات تابعة للحركة الشيوعية في روسيا وموجهة بتوجيهها. وطريقتها الهدم والتخريب، ومن غاياتها - مع إيجاد الشيوعية في البلاد - التشويش على الاستعمار الغربي لصالح المعسكر الشرقي، بوصف القائمين عليها عملاء له، وقيام الشيوعية على أساس المادية ليس هنا مجال بحثه، إلا أن مختصر القول فيه أن الشيوعية تقوم على العقيدة

المادية؛ أي: لا اله والحياة مادة، وهذا يعني أن المادة أزلية، والموجودات وُجدتْ بالتطور المادي، سواء وجود الإنسان أو الكائنات الأخرى إنما كانت نتيجة تطور المادة وانتقالها من حال إلى حال أفضل، ولذلك فان المادة أساس كل شيء، والعقل إنما هو حالة من حالات المادة، بل هو أرقى تطور للمادة، ونظم الإنسان في الحياة وقوانينه إنما هي من المادة، هذا هو معنى أنها تقوم على فكرة المادية.

هذا من حيث الفكرة، أما من حيث طريقتها فهم يقولون إن كل شيء في الوجود قائم على التناقضات، وللإسراع في عملية التطور لا بد من تحريك التناقضات في الحياة، إذًا؛ فهذه الأحزاب كانت تقوم على فكرة وطريقة، بغض النظر عن صلاحية هذه الفكرة أو بطلانها، إلا أننا نستطيع أن نقول أنها وضعت فكرة وطريقة، ولكنها كذلك لم تكن فكرتها واضحة محددة، كذلك لم تكن الطريقة واضحة بينة، ومع ذلك لا ننكر وجود فكرة مبدئية لديها، وطريقة من جنس الفكرة، وأن لهذه الحركات غاية محددة هي إيجاد الشيوعية في البلاد، إلا أن هذه الغاية البعيدة يسبقها إيجادُ التشويش على الاستعمار الغربي الموجود في العالم الإسلامي، ومن هنا نقول إن الغاية لم تكن واضحة بيِّنة؛ حيث إنها أخذت تسير حسب رغبة روسيا وتوجيهها، لا بحسب ما تحتّمه طريقة المبدأ، وما تُمْلِيه من أفكار وأعمال، فكان البارز على أعمالها الهدم والتخريب، وإيجاد الحقد والبغضاء بين العمال وأرباب العمل، وبين الفلاحين

وأصحاب الأراضي، وقد نجحت إلى حد كبير في هذه النقطة بالذات، وأعني إيجادَ العداوة والبغضاء بين الناس في علاقاتهم، وقد استطاعت تحريك الأمة في كثير من الأحيان ضد الأفكار الغربية والمصالح الغربية ولكن خدمةً لروسيا، لا تنفيذًا لفكرتها أو طريقتها، ولذلك فإننا نستطيع الجزم بأن القائمين عليها لم يكن لهم أي شعور تجاه هذه الأمة لأنهم أصبحوا عملاء لروسيا يسيرون حسب أوامرها لا حسب ما تقتضيه الفكرة أو الطريقة.

ولهذا لم تتجاوب الأمة مع هذه الحركات، ولم تُحدِثْ أثرًا يذكر، إلا ما أشرنا اليه. وكان فشلها وإخفاقها أمرًا طبيعيًا. **وذلك للأسباب التالية:**

١- لأنها تخالف فطرة الإنسان: فالإنسان فطر على أمور وجدت فيه، والقضاء على هذه الأمور مستحيل لأنها جزء من تكوينه، ومحاولة كبتها لإزالتها إنما تسبب الشقاء للإنسان، والملاحظ أن هذه العقيدة لا تقرّ بوجود أمور فطر الانسان عليها، بل تعتبرها أمورًا مكتسبة من المجتمع الذي يعيش فيه الانسان. فالتديّن ليس فطريًا في الإنسان، وإنما هو صفة مكتسبة أو فكرة لُقِّنها وهو طفل. ولذلك فهم لا يقرّون بها، ويعتبرون أن الألوهية فكرة ابتدعها عقل الانسان، هذا من حيث التدين، ولم يقف الأمر عند حد التدين، بل تعدّى ذلك إلى الغرائز الأخرى الموجودة فطريًا في الإنسان، كغريزة التملك، أو بتعبير آخر: ظاهرة التملك في غريزة البقاء، فهم يقولون كذلك أن حب التملك ليس فطريًا وإنما أملته حياة الناس في

المجتمع الرأسمالي، وأن هذه الأفكار يتلقَّنُها الفردُ منذ نعومة أظفاره، فتصبح وكأنها فطرية فيه، مع ان هذا القول منافٍ للحقيقة، وخطأه واضح للعيان، فالطفل الذي لم يلقّن أية فكرة، ولم يكتسب بعدُ أيةَ معلومات، نجده يصرخ إذا حاولنا ان نأخذ منه شيئًا يمتلكه، ويحاول أن يحوز كل شيء يلفت انتباهه. ألم يشاهد أحدهم ابنه أو أخيه في مثل هذه السن وما قبلها، وكيف يصرخ إن أخذنا منه ثدي أمه أو زجاجة الرضاعة؟ ومع ذلك يصرّون على أنها أفكار مكتسبة، مكابرةً منهم.

٢- لأنها تناقض عقيدة الإسلام؛ أي: تناقض عقيدة الأمة، ولذلك لم تكن هذه الأحزاب قادرة على الجهر بعقيدتها، بل كثيرًا إن لم نقل دائمًا ما كانت تخاطب الناس من بطونهم، وأبرز ما تتحدث به الاشتراكية ومعالجاتها الاقتصادية والثغرة التي كانت تنفذ منها إلى عقول الشباب وبعض الناس هي إعلانها العداء للغرب الذي هو العدو الأول للناس، وبعض مواقف روسيا المناهضة للغرب والمنافسة له في الهيمنة على البلاد، أما أن تجهر بإلحادها ومعاداتها للإسلام فهذا أمر لم تجرؤ على القيام به، بل أكثر من ذلك، فقد كانت تدّعي أنها تحترم الأديان وتقرّ بالإسلام، ومن غرائب الأمور أن الحزب الشيوعي في السودان كان يفتتح جلساته بتلاوة من القرآن الكريم، وفي مثل هذه الحالة فإن هذه الحركات كان فشلها طبيعيًا.

٣- تبنّيها القضايا الوطنية: فلم تكن هذه الأحزاب فروعًا لحزب واحد أو حركة شيوعية واحدة، بل كانت الصفة الوطنية ومشاكل القطر الذي هي فيه هما الصفة البارزة لكل حزب، ففي لبنان حزب شيوعي له قيادته المستقلة، وفي سوريا كذلك، وفي كل قُطر من الأقطار الإسلامية حزب شيوعي له قيادته الخاصة، ولا علاقة سياسية بينه وبين أي حزب شيوعي آخر، وكل حزب من هذه الأحزاب تبنى المشاكل الوطنية وأخذ يعمل على أساسها، ومثل هذه المواقف من البديهي ألا تجعل له أثرًا كحزب شيوعي في العالم الإسلامي.

ولهذا كان وجود الحركات الشيوعية في العالم الاسلامي عقدة تضاف إلى غيرها من العقد التي يعاني منها المجتمع، ويعاني منها التكتل الصحيح حين وجوده.

الجمعيات

وقامت تكتلات أخرى أساس الجمعيات، فقامت في البلاد جمعيات محلية وإقليمية تهدف إلى غايات خيرية، فأقامت مدارس ومستشفيات وملاجئ، وساعدت في أعمال البر والخير، وكانت تغلب على هذه الجمعيات الصبغة الطائفية، وقد شجع الاستعمار هذه الجمعيات حتى ظهرت أعمالها الخيرية للناس، وكانت أكثرها جمعيات ثقافية أو خيرية، ولم يوجد بينها جمعيات سياسية إلا نادرًا، وبالرغم من وضوح عدم جدوى هذه الجمعيات إلا أنها ما

زالت تستقطب الآلاف من أبناء المسلمين وفعالياتهم، وما زال ضررها خفيًا بحيث إن الناس لم يدركوه وما زالوا متأثرين بهذه الجمعيات، ويعتبرون ما تقوم به من أعمال هي أعمال خير ولبنة في بناء المجتمع، وخصوصًا الجمعيات الثقافية أو الخيرية، ومن طريف ما حصل في هذا المجال اتساع هذه الدائرة بحيث شملت كل ضيعة تقريبًا، بل إن بعض الضيع والقرى زاد فيها عدد الجمعيات عن واحدة، وقد وصل الحال أن يكون لكل عائلة أو عشيرة في القرية الواحدة جمعية خيرية، ناهيك عن الجمعيات التي تحمل أسماء عقائدية كجمعية المحافظة على القرآن، وجمعية تحفيظ القرآن الكريم وتدريسه، وجمعية البر والإحسان، وجمعية الإخوان المسلمين، وجمعية الأخت المسلمة، حتى بلغ عدد الجمعيات الخيرية الإسلامية في لبنان مثلًا ألفًا ومائتين وعشرين جمعية خيرية إسلامية وعلى رأسها جمعية المقاصد الإسلامية وجمعية دار الأيتام الإسلامية وغيرها، وكلها تقوم بأعمال خيرية فعلًا، وكثير منها يقوم بأعمال خيرية جزئيًا ويحصل على مكاسب وأرباح مما يجني من مساعدات تأتي لهذه الجمعيات، حتى أصبحت في كثير من الأحيان وسيلة للكسب والثراء، وقد تأثر بهذا الأسلوب كثير من الأحزاب والتكتلات حتى جعلت فرعًا منها يقوم بأعمال الخير كفتح مستوصفات أو مدارس أو مستشفيات أو غير ذلك، هذا هو واقع الجمعيات.

النتائج التي أدت إليها الجمعيات

لا بد من النظرة الدقيقة إلى هذه النتائج لمعرفة ما إذا كانت قد قدمت للأمة شيئًا يساعد على النهضة، حيث إن الموضوع هو النهضة، وهل أن الطريق الذي تسلكه يساعد على النهضة؟ وهل أن ما تقوم به من مساعدات يقدم شيئًا للنهضة؟

هذا ما يجب النظر إليه عند النظر إلى نتائج هذه الجمعيات، وليس المطلوب النظر إلى ما قامت به أعمال خيرية كبناء مستشفى أو بناء مسجد أو بناء ملجأ للعجزة أو غير ذلك من الأعمال التي يظهر فيها أنها أعمال خيرية فليس المقصود ذلك، وإنما المقصود هو النهوض بالمجتمع وإيجاد النهضة عند الأمة، إن الناظر إلى هذا الجانب من عملها لا يجد أنها قدمت شيئًا في هذا السبيل مطلقًا.

وما دام الأمر كذلك، فهل يقال إن وجودها كعدمه؟ لا، لا يقال ذلك؛ لأن وجودها ضرر محض، ولكن ذلك الضرر لا يدركه إلا المدقق في واقع هذه الجمعيات والتكالب على وجودها، بغض النظر عن النفع الجزئي الذي أشرنا اليه آنفًا، فأين الضرر إذن؟

إن موضوع البحث هنا هو النهضة لهذه الأمة الإسلامية، حيث إن الحالة التي وصلت إليها من التخلف والتجزئة والانحطاط الفكري تحتّم على أبناء هذه الأمة -خصوصًا من عنده شيء من الوعي أو الإخلاص- تحتّم عليه أن

يبحث عن ويتحسَّس عوامل النهضة والارتقاء بهذه الأمة إلى المكانة السامية اللائقة بها، وأن الأمة برمّتها بحكم وجود بعض الأفكار والمفاهيم الإسلامية فيها، وبحكم تطبيقها لبعض أحكام الإسلام حتى الآن، وبحكم صفاء عقيدتها، وبحكم إيمانها المطلق بأنها كانت في مقدمة الأمم قرونًا عديدة، وبحكم إيمانها بوجوب عودتها إلى الله، وعودة سيادتها للأمم الأخرى، وإيمانها المطلق بوجوب الجهاد، كل هذا جعل مشاعرها مشاعر إسلامية عارمة، وعواطفها عواطف إسلامية، وجعل أحاسيس النهضة موجودة دائمًا فيها، ولما كان هناك العديد من النصوص والأعمال التي ركّزت الروح الجماعية في الأمة، لذا فقد وجد في الأمة الميل الطبيعي للتكتل، هذا هو واقع الأمة، أمة فيها بعض الأفكار والمفاهيم الإسلامية، والمشاعر فيها مشاعر إسلامية، والروح الجماعية مركزة فيها، وأحاسيس النهضة يحركها هذا الواقع الفاسد الذي تعاني منه، فأمة هذا حالها، لو تركت وشأنها لتحولت هذه الأحاسيس والمشاعر إلى فكر. وهذا أمر طبيعي أو منطقي. ولكان هذا الفكر قد أنتج عملا ينهض الأمة، ويرشدها إلى كيفية النهوض، ولكن وجود الجمعيات هذه حال دون ذلك. إذ أوجد عند الأمة متنفّسًا لعاطفتها المتأججة، واستنزافا لما فيها من طاقة للعمل، وقيامًا بواجب تراه فرضًا عليها، واستجابة لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. فيرى عضو الجمعية أنه بنى مدرسة أو أنشأ مستشفى أو أسهم في عمل من أعمال الخير، فيشعر بالراحة والطمأنينة، ويَقنَع

بهذا العمل ظنًا منه أنه قام بما أوجبه الله تعالى على هذه الأمة. وتراه يقول: لو أن كل واحد منا ساهم بما يقدر عليه من عمل من أعمال الخير والبر؛ لأنقذنا الأمة مما هي فيه، أو على الأقل لخفّفنا من الآلام التي تعاني منها أمتنا!

فلو لم تكن هذه الجمعيات موجودةً، ولم يجد هؤلاء الأشخاص متنفّسًا يخفف من الضغط الحاصل على نفسياتهم من إحساسهم بوجوب العمل؛ لاستمروا في البحث حتى يوجد التكتل الصحيح الذي ينهض بالأمة، على أساس مبدئي صحيح، وهذا أمر طبيعي من حيث إن الواقع ومؤثراته ومخالفته لما في النفس من مفاهيم وأفكار إسلامية ومناقضته وعدائه لما عند الأمة من مشاعر إسلامية ووجود الطاقة الحيوية فيها من البديهي أن يدفعها للبحث والتنقيب عن طريقة للخلاص، إلا أن وجود الجمعيات وظهور أعمال خير لها صرف الأمة عن مواصلة البحث، وألقى في روع الكثير من أبنائها أن هذه هي طريق الخلاص.

إذا فإدراك خطر وجود هذه الجمعيات مسألة دقيقة يتطلب عمقًا وإمعان نظر، ولا نعني أن القيام بأعمال الخير والبر أمر محرم ولا يجوز شرعًا، بل إن المسألة هي خلاف ذلك، فعمل الخير يبقى خيرًا وجزاؤه الثواب، والتعاون على عمل الخير هو تعاون على البر والتقوى، إلا أن المسألة لا تبحث على هذا الصعيد، وإنما تبحث من حيث إنها طريق للنهضة أو ليست طريقًا لها؟ وهل يجوز أن تعتبر هذه الجمعيات طريقًا للنهضة، وعملا من أعمال استئناف الحياة

الإسلامية؟ وهل إن وجودها معينٌ أو معيقٌ للقيام بالنهضة واستئناف الحياة الإسلامية؟ هكذا يجب أن يُنظر إلى المسألة، لا من حيث إن هذا العمل جائز أو مندوب أو فرض.

هذه هي مسألة الجمعيات الخيرية، وأثرها على إيجاد تكتل صحيح في المجتمع.

وقامت -إلى جانب الجمعيات الثقافية والخيرية- جمعيات أخلاقية تعمل لإنهاض الأمة على أساس الأخلاق بالوعظ والإرشاد والمحاضرات والنشرات، على اعتبار أن الخُلُق أساس النهضة. وقد بذلت في هذه الجمعيات جهود وأموال، ولكنها لم تكن لها نتائج مهمة، ونفّست عاطفة الأمة بهذه الأحاديث المملولة المكررة، وقد كان قيام هذه الجمعيات مبنيًا على الفهم المغلوط لقوله تعالى مخاطبًا الرسول ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، ولقوله: (إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق)، ولقوله ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، أو ما ذهب إليه الشاعر بقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همُ ذهبت أخلاقُهُم ذهبوا

إن فهم هذه الأدلة التي ذهبوا اليها في استدلالهم على الأخلاق يحتّم علينا أن نتساءل عن معنى الأخلاق التي أرادوها؛ فهل أرادوا بالأخلاق كل عمل يقوم به الإنسان، أم أرادوا بها الأخلاق التي يتصف بها الفرد أثناء قيامه بالعمل أو القول؟

فإن قالوا إنما المراد بالأخلاق: كل عمل يقوم به الانسان، فإن هذا القول غير صحيح، وهو تحميل للكلمة معنىً غير المعنى الذي وُضعت له، فالتجارة والزراعة وكتابة العقود والجهاد وغير ذلك من الأعمال لا توصف بأنها أخلاق، وإنما هي أعمال يقوم بها الإنسان، ويتصف بصفات معينة حين قيامه بها، فهو حينما يتحدث بحديث كنقل واقعة أو خبر أو أداء شهادة فهذا عمل قائم بذاته وحكمه حكم ما جاء به الشرع، إلا أن هناك حكمًا آخر يتعلق بالفرد حين قيامه بهذا الفعل، فقد يتصف بالصدق في قوله، وقد يتصف بالكذب، وقد أوجب الشارع على الفرد أن يصدُق في حديثه، كما أجاز له أن يكذب في بعض الحالات، أو أن يُوَرِّي في حالات أخرى، وحرَّم عليه أن يصدُق في حالات غيرها. إذن فالصدق صفة خلقية يتصف بها الفرد أوجبها عليه الشرع، والعهد عقد بين طرفين، ويتصف المتعاقدان بصفة معينة قد يلتزمها طرف دون طرف، فأوجب الشرع على المتعاقدين الوفاء، إلا أن بعضهم قد يغرر وقد يخدع، فهذه صفات يتصف بها المتعاقدان، وهكذا، فالأخلاق صفة للفرد يتلبس بها حين قيامه بالأعمال أو الأقوال التي يريد القيام بها، ونخلص إلى القول بأن الأخلاق جزء من مقومات الفرد، والتي هي العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة ،وصلاح الفرد بصلاح هذه المقومات الأربع، وفساده بفسادها أو فساد بعضها، فمهما سمت أخلاق الفرد ومهما اتصف بصفات حميدة فلا قيمة لها مطلقًا إن كانت عقيدته فاسدة، فلا يقال إن الكافر لا خلق

له، إذن أن هناك من الكفار أو الملحدين مَن يتصف بصفات حميدة مثلًا فهو لا يكذب ولا يخون ولا يغدر، ومع ذلك فإنه لا يعتبر فردًا صالحًا؛ لأن الأساس في مقوماته أن تكون مبنية على عقيدته. من هذا الفهم لواقع الأخلاق نعودُ لفهم النصوص التي حاولوا الاستدلال بها؛ فعملية الاستدلال بنص من النصوص تحتّم فهم الواقع والتفقّه فيه، تمامًا كفهم النص وفهم ما دلّت عليه ألفاظه وتراكيبه.

فالنص الأول، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ هو خطاب من الباري عز وجلّ موجَّهٌ لرسول الله ﷺ، فقد جعله الله على خلق عظيم، فجمَّله بالصفات الحميدة في كل أفعاله، وبالتالي فان هذا الخطاب هو وصف لشخص الرسول ﷺ وليس للمجتمع، والمراد من بحثنا هو كيف ننهض بالمجتمع؟ فالمسألة مسألة النهضة.

وأما النصَّان الآخران؛ قوله ﷺ: (إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق) وقوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، فإن المعنى المراد هو كافة أفعال الإنسان، وأنه ﷺ بعث لبيان كافة الأحكام الشرعية الواجب على الإنسان التقيُّد بها، فالمسألة إذن ليست مسألة خلق أو صفة، بل مسألة تكوين الشخصية الإسلامية كاملة من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة. وما زال الموضوع متعلقًا بصفات الفرد أو مقوماته.

وأما قول الشاعر، فلا مجال للاستدلال به؛ لأنه قول شاعر، والاستدلال إنما يكون بالكتاب والسنّة فقط، هذا بالإضافة إلى خطأ الشاعر فيما ذهب اليه، إذ إن الأمم بعقيدتها والأفكار التي تحملها، والنظم التي تطبقها، والكيان السياسي الذي يحفظ لهذه الأمة وحدتها، ويوجد لها مكانتها.

لذلك فإن الخطأ في الفهم إنما كان مبنيًا على الفهم المغلوط للمجتمع، والتصور بأنه مكون من أفراد. ولذلك لا بد من معرفة مكونات المجتمع لتعرف مقوماته، ويصار إلى تقويمه بناءً على هذه المقومات.

وبالنظر في مكونات المجتمع، يُرى أنه جماعةٌ من الناس، وأفكار ومشاعر ونظام، هذه هي مكونات أي مجتمع، وفساد المجتمع وصلاحه متوقف على صلاح الأفكار والمشاعر والنظام، حيث إن الناس هم الناس وهم حمَلة هذه الأفكار وبصلاحها يصلحون وبفسادها يفسدون، أما مقومات الفرد فهي كما أسلفنا عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وصلاح الفرد إنما يكون بصلاح مقوماته وفساده بفسادها كذلك، أما أن يُتَصوّر أن المجتمع مكون من أفراد فهذا تصور خاطئ، والسير بصلاح الفرد للوصول إلى صلاح المجتمع سير خاطئ، ولا يمكن أن يحقق تلك النتيجة على الإطلاق، فهما طريقان مختلفان لا يصلان أبدًا إلى نفس النتيجة، وليست المسألة أن هذا الطريق أقصر أو أبعد، بل المسألة أنهما طريقان مختلفان لا يؤديان إلى نفس النتيجة.

وبيان ذلك، أننا لو قمنا بإصلاح الفرد صلاحًا تامًا بحيث بلغت نسبة مَن أصلحنا من المسلمين أكثر من ٩٠٪ من الذين اعتقدوا الإسلام عقيدة يقينية واضحة نيّرة، ولم يأخذوا فيها شيئًا ظنّيًا، والتزموا العبادات على أكمل وجه، فرائض ونوافل. فالصلاة، يصلي الفريضة المكتوبة، والنافلة المؤكدة وغير المؤكدة، ويقوم الليل فلا يوتر إلا قبيل الفجر، ويزكّي ماله ويتصدق بأكثر من ثلث ماله فلا يترك يتيمًا ولا مسكينًا إلا أعاله، ويصوم صوم سيدنا داوود عليه السلام بالإضافة إلى شهر رمضان المبارك، ويحج ويعتمر معظم سنيّ حياته، هذا من حيث العبادات، بالإضافة إلى تلاوة القرآن التي هي خبزُه اليومي والضراعة إلى الله قيامًا وقعودًا وعلى جنبه، فهل بعد ذلك من شيء؟ وأما أخلاقه فخلقه القرآن؛ أي أنه يتصف بكل صفة حسنة ذكرها الله سبحانه في قرآنه، وأما معاملته مع الناس فمقياسه الحلال والحرام، فلا يُقدِّم في معاملته على محرَّم أبدًا.

لو افترضنا أن غالبية المسلمين جعلناهم على مثل هذا النمط، فهل يصبح مجتمعهم مجتمعًا إسلاميًا؟ مع أن فيه قابلية أن يُحكَم بأنظمة الكفر، ويسودُه ويتحكم فيه أناس كفرة، والفاسق أو الفاجر ومن يفعل الموبقات ليس هناك من يقيم عليه حد، والبلاد التي يحيون فيها نهب لغيرهم، وليس لهم أي قوة يعتمدونها في حمل الدعوة للعالم، فهل يكون مجتمعهم هذا مجتمعًا إسلاميًا؟ هل يكون مجتمعهم مجتمعًا إسلاميًا إن لم يكن لهم كيان سياسي، ودولة تطبق فيها

أنظمة المجتمع؟ هل يكون لهم مجتمع إسلامي وليس لهم خليفة ينوب عنهم في تطبيق الإسلام في الداخل وإقامة الحدود وتنفيذ العقوبات على المخالف، ويحمي ثغور هذا البلد ويحفظ أمنَه من أي اعتداء، ويجهز الجيوش ويُعِدُّ العدة لحمل الدعوة إلى العالم؟

لا، وألف لا.

فالمجتمع جماعة من الناس بينهم علاقات دائمة، والعلاقات الدائمة وجودها حتمي عند أية جماعة يتوافقون على العيش على بقعة واحدة من الأرض، إلا أن وجود هذه العلاقات لا يتم إلا بناءا على أفكار يتفقون عليها لتنظيم هذه العلاقات، وبوجود هذه الأفكار والتزامهم بها تتواجد في نفوس هؤلاء الناس مشاعر متجانسة مع هذه الأفكار، فيغضبون حين يخرج على هذه الأفكار أحد، ويُسرّون حين يلتزم بما اتفقوا عليه أحد.

فحين يتفقون على إشباع غريزة النوع بالزواج، تجد القرية فرحة مسرورة حين يقوم أحد أبنائها بالالتزام بهذه الفكرة، وتُقام في القرية الأفراح والأهازيج والأغاني، أما إذا حصل العكس وحاول أحدهم أن يخالف ما اتفقوا عليه بأن أراد اشباع غريزة النوع عنده بغير ما اتفقوا عليه كالزنا مثلًا أو الإقامة سفاحًا مع امرأة؛ فإن القرية كلها تثور عليه وقد تُقدم على قتله، وهكذا مع كل فكرة اتفقت الجماعة عليها، فمبادلة السلع والبيع إذا خرج عنها أحد غضب عليه الجميع وسمّوه حراميًّا، وحاولوا معاقبته، ولأجل أن يبقى الأمر منضبطًا تُنيبُ

هذه الجماعة عنها أميرًا أو شيخًا أو رئيسًا أو مختارًا يتولى الإشراف على تنفيذ تلك الأفكار التي اتفقوا عليها، هذه طبيعة تكوين المجتمعات ليس غير، وإلا فإن اجتماع آلاف من البشر على ظهر سفينة لا يكون مجتمعًا؛ لأنهم لا يشتركون في أفكار واحدة، ومشاعرهم ليست واحدة، ولم يتفقوا على نظام واحد، بل يخضعون لنظام السفينة، ولم ينيبوا عنهم من يشرف على تنفيذ ما اتفقوا عليه لأنهم لم يتفقوا على شيء أصلًا، ونخلص إلى القول أن المجتمع هو جماعة من الناس بينهم علاقات دائمة تنظمها أفكار واحدة ومشاعر واحدة تكون على أساسها نظامًا واحدًا، ويناب عنهم أحدهم لتنفيذ ذلك النظام، ومن هذا يتبين أن مقومات المجتمع هي أفكاره ومشاعره والنظام المنبثق عن هذه الأفكار ونائب ينوب عنهم (أي حاكم) يتولى التنفيذ.

فصلاح هذا المجتمع بصلاح هذه المقومات، وفساده بفساد هذه المقومات، وأما ما يقال عنه أنه عرف عام فإن الأفكار والمشاعر حين تأخذ دور العراقة والتركيز في النفوس يتكون من اتحادهما عرف عام يصبح له قوة القانون، بل إنه في كثير من الاحيان أقوى أثرًا من القانون، ويصبح وكأنه رقيب على تصرفات الأفراد والحكام، بالعرف العام يخيف الحاكم تمامًا كما يخيف الفرد.

وحين نريد إصلاح مجتمع ما علينا أن نقوم بإصلاح العرف العام فيه عن طريق إصلاح الأفكار والمشاعر الموجودة فيه، وبالتالي يصار إلى تغيير النظم

المطبقة وتغيير الحاكم المنفذ لتلك الأفكار، فالعمل مباشرة يكون عملية إصلاح وتغيير العرف العام، وذلك ببيان فساد الأفكار العامة الموجودة وبيان فسادها للناس حتى يقتنع الناس بفسادها فيعمدوا لتغييرها، وبالتالي تتغير نظرتهم للحاكم ويعمدوا لتغييره، هذه هي طريقة تغيير المجتمع وإصلاحه، لا عن طريق الفرد؛ لأن طريق إصلاح الفرد تختلف تمامًا عن هذا الطريق.

إلا أن الفئة أو الجماعة أو التكتل أو الحزب القائم على عملية التغيير لا بد وأن يكون أفراده جميعهم قد أصلحت عقائدهم وعباداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم، ولا يَقبَلون في صفوفهم أي عنصر فاسد؛ لأنه لا يكون من جنسهم، فعملية إصلاح الفرد تكون فقط لأعضاء التكتل أو الحزب، وأما التكتل أو الحزب فإنه يسير بمجموعه في طريق إصلاح المجتمع.

إن عدم وضوح هذا الفهم لدى تلك الجمعيات جعلها تتخبط في سيرها ولا تؤدي إلى أي شيء يمكن أن يحقق للأمة نهضتها، خصوصًا وأنهم كانوا متأثرين بما تركّز في أذهان الكثير من المصلحين وعلماء الأخلاق من أن الفرد إنما تبنيه أو تهدمه أخلاقه، فالخلق القويم يجعله قويًا مستقيمًا فعالًا منتجًا عاملًا للخير والصلاح والإصلاح، والخلق الذميم يجعله ضعيفًا مسترخيًا لا نفع منه ولا خير فيه، ولا همَّ له في حياته إلا إشباع شهواته وإرضاء أنانيته، ولما كانت الجماعة إنما يبنيها أو يهدمها الفرد، والفرد إنما تبنيه أو تهدمه أخلاقه، لذلك فقد ساروا في طريق إصلاح الفرد عن طريق إصلاح أخلاقه.

وهذا الفهم الخاطئ لعلماء الأخلاق والمصلحين جعل خطأهم مزدوجًا، خطأ الظن بتكون المجتمع من أفراد، وخطأ تقويم الفرد بالأخلاق، وقد سبق وأشرنا إلى أن الأخلاق هي صفة من صفات الفرد وليست هي الأساس في حياته أو سلوكه، فلو أن شخصًا خلقه كخلق الأنبياء، ولكنه ملحد فهل يُعتبَر صالحًا؟ أم أنه يبقى كافرًا ولا خير فيه؟ فالأساس في حياة الفرد عقيدته، وأما بقية أعماله وصفاته فيمكن تقويمها، ولا يُخرِجه اعوجاجها عن الإسلام. فلو ارتكب فرد عقيدتُه جيدةٌ إساءةً خلقيةً أو حتى إساءاتٍ فإن ذلك لا يخرجه عن كونه مسلمًا، ويمكن إصلاحه بسهولة ما دامت عقيدته صالحة، فالقول بأن الفرد إنما تبنيه أخلاقه أو تهدمه أخلاقه قول خطأ.

ومما يؤسف له أن هذه الفكرة: فكرة أصلِح الفرد يصلح المجتمع، وفكرة إصلاح الفرد عن طريق الأخلاق، بالرغم من فشل جميع الحركات التي قامت على أساسها، ما زالت هذه الأفكار تقتنع بها العامة، وبأنها أساس الإصلاح، وما زالت تنشأ على أساسها جمعيات متعددة تسير في نفس الطريق والأسلوب.

مع أن الحقيقة هي أن وسائل إصلاح الجماعة غير وسائل إصلاح الفرد، ولو كان الفرد جزءا في الجماعة؛ لأن فساد الجماعة آتٍ من فساد مشاعرها الجماعية ومن فساد أجوائها الفكرية والروحية، وآتٍ أيضًا من وجود المفاهيم المغلوطة عند الجماعة. وبعبارة أخرى: آتٍ من فساد العرف العام.

أما قولنا بفساد مشاعرها الجماعية: فيعني أن مشاعرها لم تصبح واحدةً، فهي لا تثور وهي تشاهد الكفر مطبّقًا عليها، ولا تهتز مشاعرها الجماعية وهي ترى أبناءها غارقين في الحرمات، أو ترى النظم المطبّقة عليها كفرًا صراحًا.

وأما فساد أجوائها الفكرية والروحية: فيعني أننا نجد أن أفكار الغرب أو افكار الكفر قد وجدت إلى عقلها طريقًا، فقد امتزجت هذه الأفكار بأفكارها (الإسلامية) فنادت بالديمقراطية، ونادت بالحرية، ونادت بالاشتراكية، محاولةً المزج بينها وبين الإسلام تارةً، ومجردة تارة أخرى؛ لفساد الأجواء الروحية؛ أي: غياب ربط هذه الأفكار بعقيدتها، واستبدلت بها مقاييس النفعية، وصار ينظر إلى الحكم الشرعي من حيث ما فيه من منفعة لا من حيث انبثاقه عن عقيدتها، بل إنها تنفر من حكم شرعي صريح إذا لم تكن النفعية ظاهرة فيه أو حسب مطابقته للعقل، بالإضافة إلى تسرب بعض المفاهيم المغلوطة من جواز تولّي الكفار أمورَ المسلمين، أو إمكانية تغير الأحكام بتغير الأزمان، وغير ذلك من المفاهيم الخاطئة مما أدى إلى فساد العرف العام، ولم يعد هناك أثر للعرف العام على مجتمعنا، بل إن الفردية أصبحت مطلقةً في حياته، وأصبحت اللامبالاة في حياة الناس فكرة أساسية فيهم، وزال من بينهم ما هو من أبرز أعرافهم كمسلمين، وأعني به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يقبل من أحد أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، فتجد الكثير ممن

يردّ على من يحاول القيام بهذا الأمر قائلين له: وما دخلك أنت؟ هذا ما نعنيه بفساد العرف العام.

وكقاعدة أساسية في نجاح أي تكتل من ناحية تكتلية في إيجاد نهضة أو إصلاح، لا بد أن يكون هذا التكتل مبنيًا على مبدأ معين، وأن يكون مسبوقًا بتفهّم صحيح لهذا المبدأ بفكرته وطريقته، وأن تكون الرابطة بين أعضاء هذا التكتل رابطة صحيحة تجمع بين أعضاء هذا التكتل؛ أي: أن يكون الانضمام والعضوية فيه بمقدار وعي هذا العضو على ثقافة هذا التكتل وإخلاصه لها، وأن يكون العضو -حتى يكون عضوًا أو مسؤولًا- مؤهلًا للاضطلاع بالمسؤولية والاستعداد للتضحية.

وبالنظر إلى التكتلات التي قامت على أساس الجمعية، والتكتلات التي قامت على أساس التسمية الحزبية، نجد أن فشلها كان طبيعيًا لعدم قيامها على مبدأ معين، ولم يسبق قيامها تفهّم صحيح لهذا المبدأ بفكرته وطريقته، ولم يكن الجامع بين أفرادها؛ أي: الرابطة التي تربط بين أفرادها رابطة صحيحة.

زد على هذا فإن إخفاقها كان محققًا أيضًا من ناحية أفرادها، فإن العضو فيها لم يكن ينظر إليه من ناحية صلاحيته لهذا العمل؛ أي: من حيث إيمانه بالفكرة التي يقوم عليها التكتل، أو وعيه على تلك الفكرة، أو إخلاصه لها واستعداده للتضحية في سبيلها، وإنما يُختار الفرد فيها على أساس مكانته في المجتمع وإمكانية تحقيق الفائدة المعجلة من وجوده عضوا فيها، فقد كان العضو يُختار

على أساس أنه وجيه في قومه، أو غني بين جماعته، أو محامٍ، أو طبيب، أو ذو مكانة ونفوذ، بغض النظر عن كونه صالحًا لهذه الكتلة التي يُختار لها أم غير صالح، ولذلك فإنه كان يغلب على أعضاء هذه التكتلات التفكك، وعدم الانسجام، كما تغلب عليها الناحية الطبقية، فأعضاء الحزب أو الجمعية يداخلهم تصور خفي بأنهم يمتازون عن باقي الشعب، لا بمالهم ووجاهتهم فحسب، بل بكونهم أعضاء في الجمعية أو الحزب ايضًا، ولذلك لا يحصل بينهم وبين الشعب أي تفاعل أو تقارب.

إذًا كان اختيار الأعضاء على هذا الأساس؛ أي: المكانة الاجتماعية، ضررا كبيرا على التكتل نفسه، وعلى المجتمع أيضًا، أما ضرره على الكتلة نفسها -جمعية كانت أم حزبًا- فقد كان التفكك وعدم الانسجام فيما بينهم أمرًا طبيعيًا، وإمكانية الانتقال من حزب لآخر أو من جمعية لأخرى أمرًا بديهيًا، وكان بقاؤه في هذه الجمعية أو تلك بمقدار ما يشبع غروره، أو يحقق مآربه، أو يزيد من مكانته، فقد رأيت في أحد المكاتب السياسية لبعض هذه التنظيمات إثني عشر حامل دكتوراه، ورئيس التكتل شبه أمّي، وبمجرد توقف الانتفاع فرّقتهم أيدي سبأ، وقال لي رئيس تنظيم آخر بالحرف الواحد: "إنَّ رصيدَنا اليوم مليون ونصف المليون ليرة، وأنا أعلم أن هؤلاء -ويعني أعضاء المكتب السياسي لكُتلتِه- إنما جاؤوا للاغتنام، فأتمنى عليك لو أخذتم هذا المبلغ، أما أن يأخذه هؤلاء فهو والله جريمة".

هذا هو واقع التكتلات، وهذه خطورة اختيار الأعضاء على أساس المكانة الاجتماعية.

أما خطورته على المجتمع، فإن المجتمع يعقد أمله دائمًا على كل بارقة أمل تلوح في الأفق، ويرى أن أي تكتل في الأمة قد يؤدي إلى إنقاذها أو تحسين وضعها على الأقل. وحين يدرك المجتمع واقع هذه التكتلات، ويرى أنها إنما تركض وراء منافعها، وتلهث وراء زيادة مكاسبها ومكانتها، خصوصًا وهو يرى أنهم قبعوا في أبراجهم العاجية، ولا يتصلون بالناس إلا حين تكون لهم حاجة، كالانتخابات مثلًا، أو جمع التبرعات أو غير ذلك، حين يدرك المجتمع ذلك فإنه يكفر بالتكتلات جميعها، ولا يسمح لأي منها بدخوله، ولا يخلص لها، وهذا يشكل عقبة كؤودًا أمام أي تكتل صحيح يظهر في المجتمع، وبالفعل فإن هذه التكتلات بتصرفها هذا لم تستطع أن تدخل المجتمع ولا أن تتفاعل معه، بل لم يجرِ تقارب بينه وبينها، وبقيت في عزلتها، فأمست ضغثًا على إبّالة؛ أي: حزمة فوق الحمْل، وبمعنى اصطلاحي آخر -صنمًا على مزبلة-، و همًّا جديدًا فوق داءٍ عضال.

ولهذا نستطيع أن نقول بعد دراسة معظم التكتلات والجمعيات التي قامت في العالم الإسلامي بأكمله ومعرفة الأسس التي قامت عليها والظروف التي أوجدتها والأوضاع التي لاءمت بين أفرادها، وبعد التفكر في المفاهيم التي طرحتها، وبعض الأفكار التي أوجدتها، والآثار التي تركتها، وبعد

استقراء معظم هذه الحركات وتتبّعها من مولدها إلى نشأتها وموتها، أو تتبّع حياتها إن كانت ما زالت حية، وباستقراء كافة الأقاليم الإسلامية، ورؤية أنها ما زالت تعاني من الانحطاط والتخلف، وما زال الاستعمار يهيمن عليها جميعها هيمنة فكرية وثقافية واقتصادية وسياسية، ولم تبد تباشير أي نهضة أو أفكار تؤدي أو يمكن أن تؤدي إلى النهضة، بعد هذه الدراسة والتفكر والاستقراء نستطيع أن نجزم أنه لم ينشأ خلال القرن الفائت أي تكتل صحيح يؤدي إلى نهضة صحيحة، وأن جميع التكتلات والحركات التي حصلت قد أخفقت، والدليل على ذلك بقاء الأمة على حالها، إن لم نقل أنها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وسبب ذلك هو أنها قامت على أساس مغلوط.

مع أن الأمة لا تنهض إلا بالتكتل، فإن الملاحظ أن العمل الفردي لا يجدي ولا يمكن أن يؤدي إلى أية نتيجة إطلاقًا، ولو أراد أحد أن ينهض بالأمة على أساس واضح فسيجد نفسه حتمًا يعمل على إيجاد تكتل، ذلك أنه حين يدعو الناس أفرادًا أو جماعات إلى ما يحمل من دعوة،؛ أي: إلى الأساس الذي يريد أن ينهض الأمة على أساسه، فقد يستجيب له فرد أو أفراد، فلا بد له من تثقيفهم بالثقافة التي أعدّها، أو توضيح الهدف الذي يسعى إليه، ثم إن هؤلاء الأفراد حين ينطلقون بما حفظوا وما آمنوا به يدعون الناس لفكرتهم وهدفهم فإنهم سيبقون حتمًا على اتصال بداعيتهم الأول، يوجّههم بما يراه ويرسم لهم خطة العمل وأساليبه، ويجيبهم على تساؤلات الناس، أو تساؤلاتهم هم

واستفساراتهم عن بعض الأمور، وفي هذه الحالة سيجد هذا الإنسان نفسه يقود كتلة معينة شاء أم أبى، هذا مع افتراض الإخلاص عند هذا الإنسان (وهذا هو الأصل)، أما اذا افترضنا غير ذلك من ارتباط أو عمالة، فان عمله الفردي لا يؤدي إلى نتيجة ولا يستجيب إليه أحد، وبالتالي فهو عمل فاشل ولا يعوّل عليه، ولهذا نقول أن أية عملية تغيير في الأمة لا يمكن لفرد أن يقوم بها بمفرده، بل لا بد من تكتل يقوم على ذلك، فكيف إذا كانت عملية التغيير هذه هي النهوض بالأمة؟ إنه لا بد وأن يقوم بهذا الأمر تكتل، فما هو هذا التكتل الصحيح الذي يسبب نهضة الأمة؟ هذا ما نحتاج إلى بيانه.

التكتل الصحيح

مرّ بنا نوعان من التكتلات: جمعي، وحزبي، أما النوع الجمعي فقد بيّنا فساده، ونوجز ذلك بأن النظام الجمعي إنما يقوم على أسس معينة؛ أي: أن تقوم الجمعية بأعمال وأقوال، أو بأعمال فقط، أو بأقوال فقط.

فالجمعيات التي تقوم على أساس أعمال وأقوال، مثل الجمعيات التي تقوم مثلًا ببناء المدارس والمستشفيات، وفي الوقت نفسه تقوم بحملات وعظ وإرشاد أو تدريس القرآن أو غير ذلك من الأفعال القولية، وهذا النوع من الجمعيات كثير، حتى من الذين اتخذوا ذلك وسيلة للثراء.

أما الجمعيات التي تقوم على أساس أعمال فقط، فهي الجمعيات التي تقوم على بناء المساجد أو المدارس وما شاكل ذلك، ولا تقوم في الوقت نفسه بأعمال قولية.

وهناك الجمعيات التي تقوم على أسس قولية؛ أي: تقوم على الوعظ والارشاد، والأفعال القولية؛ أي: تعقد ندوات وتوزع نشرات أو غير ذلك.

إن مثل هذه الجمعيات لا يجوز أن يُشجّع وجودها في الأمة التي تودّ النهوض، وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقًا؛ أي: من حيث إنها تسبب اليأس عند الأمة نتيجة تكرار الفشل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنها تصرف الناس ومن فيهم الحيوية بشكل خاص عن البحث عن التكتل الصحيح.

هذا من حيث الجمعيات، أما من حيث التكتلات التي تقوم على أساس حزبي اسمًا، أي: التكتلات السياسية، كالتي وجدت في العالم الإسلامي منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن، فإن هذه التكتلات لا يجوز تشجيعها في المجتمع، فهي لا تقل ضررًا عن التكتل الجمعي، خصوصًا بعد أن سيطرت على عقليتها فكرة الاستعانة بالأجنبي وأمثالها من الأفكار القاتلة، وما خلّفته في المجتمع من مفاهيم مغلوطة.

وإنما التكتل الصحيح هو الذي يقوم على أساس حزبي مبدئي إسلامي، شريطة أن يتلافى تلك الاخطاء التي أشرنا إليها والتي كانت سببًا في فشل تلك التكتلات السالفة الذكر. إذًا فلا بد أن يقوم هذا الحزب على أساس مبدئي

إسلامي كما قلنا، تكون الفكرة فيه هي الروح لجسم الحزب، وهي نواته، وهي سرّ حياته، وتكون خليته الأولى إنسانًا تتجسد فيه الفكرة وطريقة من جنسها، حتى يكون إنسانًا من جنس الفكرة في نقائه وصفائه، ومثل الطريقة في وضوحه واستقامته.

ولما قلنا أنه حزب مبدئي إسلامي، تكون الفكرة هي الروح لجسم الحزب، وهي نواته، وسرّ حياته، فالمعروف أن المبدأ هو عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام، نظام ينظم حياة الفرد والمجتمع، ويبين كيفية تنفيذ هذا النظام؛ أي: أنه فكرة وطريقة، إذًا عقيدة هذا المبدأ وما ينبثق عنها هي الروح لجسم هذا الحزب، فالعقيدة الإسلامية وما ينبثق عنها من معالجات وحملها إلى العالم وكيفية المحافظة عليها وكيفية تنفيذ معالجاتها وكيفية حملها للناس هي الفكرة التي هي سر حياة هذا التكتل، وهذا لا يعني أن نضع أسس هذه العقيدة الستة: "الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله" فقط، ثم نقول أن العقيدة هي الجامع بين أعضاء التكتل، فالأمة بمجموعها تعتقد هذه العقيدة، وإنها لتجري في عروق أبنائها مجرى الدم، ولم يجر عليها أي تغيير عبر العصور، اللهم إلا بعض الغِشاوات على بعض أفكارها، وقد كانت التكتلات الأخرى كالجمعيات والأحزاب اسمًا يعتقد أفرادها هذه العقيدة فلم يُجدِ نفعًا، ولم تصلح لأن تكون رابطة تربط بين أعضاء هذه التكتلات، بل المقصود من الفكرة -أي: عقيدة المبدأ- فهم هذه

العقيدة، وفهم ما جاءت به هذه العقيدة من معالجات ونظم وأهداف، وتثبيتها كثقافة لهذا التكتل يجري بناء الأعضاء على أساس هذه الثقافة، ويكون صلاحهم للعضوية والمسؤولية بمقدار وعيهم على هذه الثقافة وإخلاصهم لها.

وبهذا تكون هي الرابط بين أعضاء التكتل عن إيمان وإخلاص، فإذا ما وجدت هذه الثقافة، وما وضّحته من طريقة للوصول إلى غايتها وتحقيق هدفها فقد وجدت نواة الحزب، وكانت فعلًا هي روح الحزب، وسر حياته، وهي الجامع الوحيد بين أفراده، إذ أن عدم قناعة أي فرد بفكرة أساسية من هذه العقيدة يجعل هذا الفرد بعيدا عن هذا الحزب ولو كان عضوا فيه، وعدم إيمانه بحكم من أحكام طريقته يؤدي بالتالي إلى ابتعاد هذا الفرد عن جسم الحزب ولو كان أحد مسؤوليه، هذا معنى قولنا إن هذه الفكرة وهذه الطريقة هي نواة الحزب وسر حياته.

هذا من حيث الناحية الفكرية المسطحة على الورق؛ أي: من حيث أساس ما يجب أن يكون، أما وجود الخلية الأولى فإنما هي إنسان من جنس هذه الفكرة في نقائه؛ أي: أنه آمن بهذه وحدها، ولم يمتزج فكره بمجموعة من الأفكار اختلط فيها الغث والسمين، فكما أن هذه العقيدة لها مصدر واحد فقط هو الوحي، فإن هذا الانسان لا بد أن يكون له قاعدة واحدة للتفكير، هي العقيدة وما جاءت به من نصوص ليس غير، وأن عقله فقط لعقل هذه العقيدة وفهم

نصوصها، ولا يتخذ أي قاعدة أو نص غير هذه، هذا ما نعنيه بنقائه، نقاء الفكرة؛ أي: أن الفكرة ليس لها إلا مصدر واحد هو الوحي، وترفض أن يشترك فيها غير هذا المصدر، وكذلك هذا الإنسان لم يتخذ أي مصدر لتفكيره إلا هذا المصدر.

وأما القول أنه مثل الطريقة في استقامته، فمن المعروف أن الطريقة جاءت بها العقيدة ونفذها رسول الله ﷺ لا تأخذه في الله لومة لائم، فها هو رسول الله ﷺ يجيب عمه وقومه حين جاءوا لمساومته: (والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) أو كما قال، وها هو أيضًا يقول للمتشفعين في المخزومية التي سَرقَت: (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)، هذا هو الوضوح والاستقامة، تتنـزّل سورة المسد في حق عمه وزوجة عمه تبكيتًا وتقريعًا وتوعّدًا: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ الآيات، فيُعلِنُها رسولُ الله ﷺ ويحفظها الناس ويهرولون بها إلى أبي لهب و إلى سادة قريش، فلم تأخذ رسولَ الله لومةُ لائم، ولم يأبَه لمن يقول له: أهكذا تقول في عمك وزوجة عمك، وهو السيد في قومه، الزعيم في عشيرته؟! نعم لم يأبه لذلك؛ لأن الطريقة تقتضي الاستقامة والوضوح.

فإذا ما وجد الإنسان المتصف بهذه الصفات من النقاء والاستقامة فقد وجدت الخلية الحية الأولى، ثم لا تلبث هذه الخلية أن تتكاثر -حيث إن من طبيعة الخلايا الحية أن تتكاثر-، وعملية التكاثر هذه ستؤدي حتمًا إلى إيجاد الحلقة الأولى، وكما ذكرنا سابقا فإن أي إنسان مخلص حين يبدأ بالدعوة لفكرة ما فسيجد من يستجيب له، وأن مَن استجابَ سيتحرك أيضًا في الدعوة، إلا أنه سيبقى مرتبطًا بالمصدر الأول للتشاور معه وأخذ التوجيه منه للسير بهذه الدعوة، وبهذا تكون قيادة الدعوة قد وجدت طبيعيا من هذه الخلايا الأولى والتي باشرت الدعوة وقيادتها، وبهذا تكون قد نبتت الكتلة الحزبية .

وحين تنبت الكتلة الحزبية تحتاج إلى الجامع بين أفرادها؛ أي: تحتاج إلى الرابطة التي تربط بين أفرادها الذين آمنوا بفكرتها وطريقتها، فتكون بذلك العقيدة -عقيدة المبدأ- هي الرابطة الحزبية، وتكون هذه العقيدة هي المصدر الوحيد الذي تنبثق عنه فلسفة الحزب؛ أي: أفكار الحزب الأساسية، والمصدر الوحيد لثقافة الحزب.

وعودة إلى كلمة (ثقافة): أُحبُّ أن أذكر أن الثقافة الإسلامية؛ أي: ثقافة الحزب، إنما هي ما جاءت به العقيدة من النصوص؛ أي: الكتاب والسنة، وكذلك ما كانت هذه العقيدة سببا في بحثه وفهمه، وهي اللغة العربية ومجموعة معارفها، ولهذا كان مصدر ثقافة الحزب هو العقيدة الإسلامية ومعارف اللغة العربية ليس غير، فإذا ما وضعت هذه الكتلة الحزبية ثقافتها

وجعلتها هي الرابطة بين أعضاء هذه الكتلة وبنت الكتلة على أساس الإيمان بهذه الثقافة ومدى الوعي عليها والإخلاص لها، حينئذ تكون الكتلة الحزبية قد وجدت وسارت في معترك الحياة.

وحين تبدأ الكتلة السير في معترك الحياة تتقلب عليها الأجواء حارة وباردة، وتهب عليها الرياح عاصفة ولينة، وتتناوبها الأجواء صافية وملبدة، **وهذا يعني أن هذه الكتلة تعاني أوضاعًا ثلاثة:** الحفاظ على ذاتها، وتنمية نفسها، وتنمية المجتمع الذي تعمل فيه، وخصوصا الذين يناصبونها العداء.

أما الوضع الأول وهو العمل على تنمية نفسها وزيادة عدد أعضائها، وإيجاد أجواء لها ووعي عام على فكرتها، فإن عملها هذا تنتابه حالات من القوة والضعف والتردد، فيندفع أفرادها بحماس وقوة، إلا انهم حين يصطدمون بما في المجتمع من عقبات تصيبهم حسرة، ويسقط في أيديهم، مما يؤدي إلى ضعف نشاطهم وفتور همّتهم، فأجواؤهم حارة تارة وباردة أخرى.

وأما تصدّي خصومهم لهم من السلطة أو من حملة الأفكار الأخرى، فهي متقلبة كذلك، فتقوم السلطة باعتقالهم تارة وبالإفراج عنهم تارة أخرى، تحاربهم في أرزاقهم وتمنعهم من الوظائف وتحول دون نشاطهم تارة، وتارة تغض النظر عنهم لظرف ما، أو لمحاولة معرفة المزيد عنهم، وكذلك حملة الأفكار الأخرى فلا يفتؤون يطرحون الدعايات المغرضة، والافتراءات الكاذبة، والأقاويل الباطلة عن هذه الكتلة وشبابها، فتارة يحاربونها بالإهمال

وتجاهل وجودها ومنع وسائل الاعلام من الحديث عنها لا مدحًا ولا قدحًا، وتارة يقومون بنشر الأكاذيب المفضوحة دون خجل، فقد بلغ الحال بإحدى الجهات الإسلامية أن ألَّف أحدُ أفرادها كتابًا يقول فيه إن هذا الحزب يرى أن الصلاة في هذه المرحلة ليست واجبة، ويقول في كتابه إن هذا الحزب يقول في كتابه "نظام الإسلام " في الصفحة ١٧ في السطر العاشر ما نصه: "أن الصلاة في هذه المرحلة ليست واجبة لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وما دُمنا لم نُمكَّن في الأرض فالصلاة ليست واجبة"، انتهى كلام ذلك المؤلف، والذي ساعده على انتشار فِرْيته عدمُ وجود أو توفُّر كتاب "نظام الإسلام" في المكتبات؛ لأنه ممنوع من التداول، هذا نموذج من الرياح التي كانت تهب على هذه الكتلة، عاصفةً حينًا وليّنةً أحيانًا.

وأما المجتمع الذي تعمل فيه هذه الكتلة فإنها بتصدِّيها لما فيه من مفاسد وما يقوم فيه من نظم وما يهيمن عليه من رأي عام وما يكتنفه من لا مبالاة كان هذا المجتمع يتقبل مرة ويصدّ عنها مرات، خصوصًا حين تهاجم ما يُهيمِن عليه من رأي عام كالقومية والناصرية والاشتراكية في حينه، فإنه يضع أصابعه في أذنيه، ويتغشَّى ثوبَه، ويصُدُّ ويستكبر استكبارًا، أما حين تطرح أفكارًا وآراءَ تستغربها الأمة وتراها بعيدةً عن الواقع، ثم لا تلبث أن تتبين حقيقة هذه الأفكار والآراء ومطابقتها للواقع، فإنها تُعيدُ النظر في موقفها من هذه الكتلة، ولكنها عودة مترددة.

هذه هي الأوضاع الثلاثة التي تُجابِه هذه الكتلة حين سيرها في معترك الحياة، فإذا ثبتَتْ لهذه العوامل فإنها تكون قد اجتازت خط الدفاع الأول لأفكار الكفر وحصلت على النتيجة الآتية:

تبلور فكرتها: فالاصطدام بالأفكار الأخرى ومناقشتها وبيان فسادها يؤدي حتما إلى تجسيد هذه الفكرة وبلورتها؛ أي: انتقالها من حالة الميوعة إلى حالة التجسيد؛ أي: انتقالها من أفكار خالية خيالية إلى رؤية الواقع وانطباقها عليه، فالفرد حين كان يتثقف بهذه الثقافة على الورق كان يصعب عليه تلمُّس واقعها ومحاولة تجسيده، أما بعد اصطدامه بالأفكار الأخرى فقد أدرك صدق أفكاره وأنها أفكار تنطبق على واقعها، فمثلًا حين كان يقرأ عن المبادئ الأخرى وفساد عقيدتها وبطلان أفكارها؛ لم يكن يتصور أن أفكاره تستطيع أن تهزم تلك الأفكار، ولما خاض معها تلك المناقشات وجد تلك الأفكار أوهَى من بيت العنكبوت، وثبت لديه أن فكرته هي الحق.

وضوح طريقتها: إن هذه المناقشات الحادة للأفكار والمعتقدات الأخرى جعلت الشاب يحاول تطبيق ما يقوم به مع سيرة سيد المرسلين، فيجد أنه يقتدي بخطواته خطوة خطوة، وأن ما يجده هو عين ما وجده المصطفى ﷺ ، وهذا ما وضّح له الفرق بين المرحلة المكية والمرحلة المدنية، وبين له الفرق بين ما هو وسيلة أو أسلوب وبين الطريقة الواضحة الثابتة، وميز له بين حكمٍ لمعالجة من المعالجات وحكمٍ لتنفيذ حكم لمعالجة من المعالجات، ففرّق بين

أحكام حفظ النسل مثلًا والأحكام المبينة لكيفية تنفيذ أحكام حفظ النسل، إلى غير ذلك من أحكام الطريقة المبينة لكيفية تنفيذ أحكام الفكرة؛ أي: أدرك أن الإسلام له كيفية معينة في تنفيذ أحكامه، فهو ليس مجموعة من الوصايا يقوم الفرد إيمانًا منه بتنفيذها، وأدرك أن الدولة هي الحكم الأساسي من أحكام الطريقة، المنفذة للأحكام.

أعدّت أشخاصها: حين وجد حامل الدعوة نفسه وحيدًا إلا من إخوة له في هذه الدعوة، فقد ناصبَه العداءَ أقربُ المقربين إليه حتى والديه وأهل بيته، ومع ذلك لم تأخذه في الله لومةُ لائم، وفهم معنى وجودَه في الحياة، وعرف أنه إنما يعيش من أجل الإسلام؛ كان صادقًا في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾، ومَن كان هذا حالَه فإنه يكون قد أُعدَّ إعدادًا حقيقيا يُؤهله لقيادة الأمة والأخذ بيدها في طريق النهوض، وكان حريًا بمن هذا حاله أن يضطلع بأعباء الدعوة والسير بها في سبيل تحقيق غايتها.

قوَّت رابطتها: إن هذه الكتلة الواعية والكتلة العاملة حين تجد نفسها وحيدة في الميدان ولا معين لها إلا أفرادها العاملين، وحين تجد أن الأمة التي تعتقد عقيدتها، وحين تجد الكثير من الفئات التي تدعو للإسلام كذلك تعتقد ما تعتقده هذه الكتلة، ومع ذلك تناصب هذه الكتلة العداء وتجاهرها بالمقاطعة، تدرك هذه الكتلة حينها أن الرابطة الحقيقية التي تربط بينها هي الثقافة الحزبية،

فلا رابطة قومية ولا رابطة مصلحية، ولا حتى بين المرء وأهله، ولا العقيدة مجردةً عما ينبثق عنها من مفاهيم، بل الرابطة الحقيقية هي العقيدة بما انبثق عنها من مفاهيم حسب فهم معين ليس غير.

وأحب أن ألفت النظر لتثبيت هذه الحقيقة في النفس إلى أنه من الصعب إدراك كيف أن العقيدة وحدها ليست كافية للربط بين أعضاء التكتل الواحد، بل لا بد من العقيدة بكافة ما ينبثق عنها من أحكام وما بني عليها من أفكار تكون بمجموعها ثقافة الحزب حتى تكون رابطة، فكلنا يعرف الأئمة الأربعة، "أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل"، وكلنا يعرف أنهم مؤمنون مخلصون، وأنهم يعتقدون العقيدة الإسلامية بإيمان يقيني صادق، ومع ذلك لم تجعل هذه العقيدة منهم كتلةً واحدةً، ولا جعلت من المقلّدين لهم كتلة واحدة، فلو كانت مدارسهم ومقلدوهم كتلة سياسية، لكانت كتلًا متعددة، ولبرز الصراع عنيفا بينهم، وحتى مع كونهم مدارس فقهية فقد حصلت صراعات حادة في بعض الأحيان بين هذه المذاهب.

وكذلك، فقد حصل ويحصل وسيحصل بين الفئات الإسلامية صراعاتٌ فكريةٌ لاختلافها في الرأي في جملة مسائل، وهذا هو الأمر الطبيعي، فالرابطة الفكرية لا بد أن يتوفر فيها رابطة واحدة، وهدف واحد، وأفكار وأحكام واحدة مما يتعلق بالجامع بينهم، وبالهدف الذي وضعوه لأنفسهم، وبالأحكام التي تبين كيفية سيرها، والطريقة التي ينتهجونها، حتى تكون رابطة تجمع بين

أعضاء هذا التكتل أو ذاك جمعًا حقيقيًا يتقدم على أية رابطة أخرى مثل القومية أو الوطنية أو العصبية، وتتقدم حتى على الرابطة بين المرء ووالديه، وبين المرء وزوجه.

هذا هو التكتل الصحيح الذي يعمل للنهضة الصحيحة، وهو التكتل الذي تكون نواته الفكرة، وثقافته هي الرابطة، وهو الذي يستطيع أن ينتقل من كتلة حزبية إلى حزب مبدئي متكامل، ويستطيع أن يضطلع بأعباء المسؤولية، ويخطو نحو غايته بخطى ثابتة؛ لأنه هاضم لفكرته، مبصر لطريقته، مؤمن بهدفه، لا يثنيه عن الوصول إليه شيء، ولا يلهيه عنه التعامل مع جزئيات الأمور وتعقيدات الحياة والصخور التي تُلقى في طريقه لإعاقته عن تحقيق غايته وهدفه.

نشأة هذا التكتل الحزبي المبدئي في الأمة

أما كيف ينشأ هذا التكتل في الأمة التي تريد النهوض نشوءًا طبيعيًا؛ فهاكَ البيان:

الأمة جزء واحدٌ لا يتجزأ، وهي في تكوينها الكلي كالإنسان، وبالرغم من القائلين بتكون المجتمع من أفراد، ومن محاولة تركيز مبدأ الفردية المأخوذ من النظام الرأسمالي في نفوس الناس، وتأثر الكثيرين به، إلا أن المكونات الأساسية للأمة تبقى هي الأساس في تكوين الأمة، فعقيدتها وما ينبثق عنها من مشاعر وما يتكون على أساسها من عرف عام هي الأساس في تكوين

الأمة، فما دامت الأمة تحمل عقيدة معينة، وينبثق عن هذه العقيدة أفكار وأحكام أساسية تنظم حياتها، وما دام لهذه العقيدة أثر على مشاعر الناس، وما دام لهذه العقيدة أثر على طريقة التفكير عندها -أي: عند الأمة- فإنها تبقى أمة، مهما لحقها من أمراض، ومهما اعتراها من هزال، وتبقى كأنها إنسان يعيش في الحياة.

فالحياة في الإنسان هي العقيدة في الأمة، والإنسان مهما أصاب أعضاءه من مرض أو لحقه من شلل وبقيت فيه الحياة -أي: الروح- يبقى إنسانًا حيًا يمكن معالجته، وكذلك الأمة مهما اعترى بنيها من خور ومهما أصابهم من وهن ومهما طغى عليهم من فساد تبقى الأمة حية ما بقيت فيها عقيدتها، ولو أنها أمست منحطة، إلا أن إمكانية معالجتها بقيت قائمة.

والإنسان المريض الذي أشرف على الهلاك ثم تماثل للشفاء فإن الحياة تدب في عروقه وجميع أوصاله؛ لأنه كائن حي، كذلك الأمة حين تدب فيها الحياة والحيوية فإنها تدب فيها جميعا بوصفها مجموعة إنسانية واحدة باعتبارها كلًا، والحياة للأمة هي الفكرة التي تصحبها طريقة من جنسها، لتنفذ بها، فيتكون من مجموعهما ما يسمى المبدأ، إذًا لا يكفي وجود العقيدة الروحية في الأمة لنهضتها، ولا يكفي وجود العقيدة منفصلة عن طريقتها التي تنفذ بها كي توجَد النهضة في الأمة.

أمتنا تحمل العقيدة الروحية بشكل جيد، والإيمان بأن الإسلام يعالج كافة مشاكل الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافية موجود في الأمة كذلك، إلا أن طريقة تنفيذ هذه المعالجات لم تصحب هذا الإيمان، بل لم يدرك لذلك طريقة، ولذلك لم يؤثر كل ذلك على وجود الحياة في الأمة، ولا حتى الحيوية في كثير من الأحيان.

إذن فوجود المبدأ في الأمة ليس كافيا لبحث الحياة فيها، وإنما الذي يبعث الحياة فيها هو اهتداؤها لهذا المبدأ ووضعه موضع التنفيذ، فالأمة بمجموعها صغيرها وكبيرها يتغنى بوجود المبدأ الإسلامي عنده، وأن الإسلام فيه كل معالجات الحياة، وأنه لو طبق لأضفى على العالم كله السعادة الكاملة، إلى غير ذلك من التمنيات والأماني، وليس هناك إلا النزر اليسير من مثقفي الأمة والمضبوعين بالثقافة الغربية ممن يرون أن الإسلام عاجز عن مجاراة العصر وحل مشاكل الأمة، وقد عمد الكثير منهم إلى محاولة التوفيق بين الإسلام وغيره، أو محاولة تأويل النصوص الشرعية حتى تجاري العصر وتوافق الأفكار الغربية، ومع كل ذلك نقول أنها لم تتحسس طريق النهضة، ولم يؤد وجود هذه المفاهيم فيها إلى وجود الحياة فيها؛ لأنها لم تضع هذا المبدأ موضع التنفيذ، مع وجوده كنصوص مقدسة بين يديها، فلا هي اهتدت لفكرته، و لا أدركت طريقته، ولا عرفت وجوب ربط فكرته بطريقته. وبالتالي فإن وجود هذا المبدأ العظيم بفكرته وطريقته في الأمة وفي تاريخها وفي تراثها التشريعي،

وتغنيها بماضيها العريق، وأنها كانت سيدة الدنيا، كل ذلك لم يؤد إلى وجود الحياة فيها.

إن المضبوع لا يصحو حتى يرى دمَه يسيل، والمضبوع هو المأخوذ من حيوان اسمه الضبع، وهذا الحيوان حين يلتقي إنسانًا ويحاول افتراسه فإنه يلجأ إلى أساليب ورائحة كريهة تخرج منه بحيث يفقد هذا الإنسان السيطرة على أعصابه فيتبع الضبع إلى حيث يريد، وهو يصرخ: انتظرني يا أبي، والضبع يسير أمامه حتى يصل به إلى مكان افتراسه، فلا يصحو هذا المضبوع من اتِّباعِ الضبع حتى يرتطم بحجَر فيسيل دمه، أو يضربه شخص ما يريد إنقاذه فيسيل دمه، وإلا بقي متبعًا الضبع إلى وَكرِه ومكان افتراسه.

ومَن فقد وعيه لسبب من الأسباب لا يصحو بسهولة، بل لا بد من سكب الماء عليه، أو وضع النشادر في أنفه أو أية مادة فاعلة تعيد عمل الأعصاب الطبيعي، وأما الأمة المنحطة التي فقدت وعيها وراحت تغطّ في نوم عميق فإنها تحتاج إلى ما يعيد إليها صوابها ويعيد الحيوية إلى أوصالها، تحتاج إلى ما يُسيل دمها ويوقظ أعصابها النائمة الغافلة، وغالبا ما تكون الهزات العنيفة التي تصيب مجموع الناس من أفضل المنبهات، من حيث إن هذه الهزات ينتج عنها إحساس مشترك، وهذا الإحساس الجماعي بهذه الصدمات يؤدي إلى حوار ومناقشات بين الناس، من حيث أسباب هذه الهزات، وما الذي سببها وكيفية تلافي مثيلاتها، إلى غير ذلك من المناقشات، سواء بين المثقفين

والسياسيين أو بين عامة الناس، فالإحساس مشترك ولو أنه يتفاوت قوة وضعفا، ومن هذه المناقشات الحادة وبتوالي المصائب وتتابع البلوى يستمر البحث بين الناس، مما يؤدي إلى عملية فكرية ينتج عنها قضايا من جراء البحث في أسباب ومسببات هذه المصائب، فمن الناس مَن يتناولها بمنتهى السطحية والبساطة، فيقول: إننا نستحق ذلك؛ لأننا لم نلتزم بما أمرنا الله، ومنا من يقول: تلك مشيئة الله، وذاك يصرخ: عودوا إلى ربكم، وآخرون يحاولون ربط واقعهم بما حصل لهم، ويبحثون في كيفية معالجة هذه الأمور معالجة تنقذهم مما هم فيه، ومن البديهي أن يحاول كلٌّ منهم إقامةَ الدليل على صحة ما ذهب اليه، ويبرهن على صدق النتيجة التي توصل اليها، وبهذه الكيفية من المناقشات والحوار ومن ربط الواقع المحسوس بأسبابه ومسبباته ينتج الفكر الصحيح، من حيث إن القضايا الحسية المبرهن عليها بالأدلة والبراهين يتولد عنها نتائج صحيحة، هذا هو المنطق السليم، قضايا حسية صحيحة كبرى، وقضايا حسية صغرى، ونتيجة حسية، واصطحاب هذه العملية المنطقية هو الذي ينتج الفكر الصحيح، ويبقى هذا الفكر مرتبطا بأدلته وبراهينه، ودوام هذا الاتصال والترابط بين القضايا يؤدي حتمًا إلى بحث ماضي الأمة وما كانت عليه، والحالة التي هي فيها، والمستقبل الذي تسير إليه إن بقيت على هذا الحال، ومن البديهي أن يدفع هذا البحث إلى بحث علاقة الأمة بغيرها من الأمم والشعوب وتاريخها والوقائع والأحداث التي أثرت في مسير حياة الأمم

وأسباب نهوض كل أمة منها، إلى ما يصحب ذلك من مقارنات ومداخلات تؤدي بالتالي إلى اهتداء العقل للمبدأ بفكرته وطريقته، فيؤمن به بعد أن تبرهن القضايا المنطقية على صحته وإنتاجه، وحين نقول القضايا الحسّية فإننا نعني بها القضايا التي دل الدليل العقلي المبني على الحس على صدقها؛ أي: كل قضية أُقيم الدليل الحسي والبرهان العقلي على أنها صحيحه صادقة، هذا ما تؤدي إليه غالبًا الهزات العنيفة والصدمات القوية في الأمم النائمة، إلا أنه قد يقوم أعداء هذه الأمة بتضليلها وإلهائها بالأعمال المرتجلة التي تبعدها عن وقفة التفكير تلك، فتنتقل من الإحساس إلى العمل دون تفكير، فإذا ما استمر ذلك فقد يؤدي إلى حالة من اليأس تؤدي بالأمة إلى الاستسلام واليأس، ويكون ذلك مما يؤخر عملية الاهتداء إلى المبدأ فترة أطول، إلا أن الأمر الطبيعي أن تؤدي تلك الهزات إلى ما ذكرنا.

ويكون الاهتداء للمبدأ جماعيًا في الجماعة؛ لأن الإحساس المشترك فيها أدى إلى البحث بين كل فئاتها، وبالتالي ونتيجة للحوار والمناقشات واستعمال منطق العقل يؤدي حتمًا إلى الاهتداء إلى المبدأ بشكل جماعي؛ لأن الذي أدى للاهتداء إليه هو الإحساس الجماعي الذي وجد في الأمة نتيجة للهزات.

نعم إن الإحساس يتفاوت بين شخص وآخر، والمؤثرات في الإحساس تتفاوت كذلك من حيث القوة والضعف لا من حيث النوعية، فحين نحس بالظلم أو المصيبة أو الهزيمة فإن الإحساس المتولد عن هذا الواقع واحدٌ من

حيث نوعيته، فهو إحساس بالظلم أو الهزيمة، ولكن تفاوته إنما يكون من حيث القوة والضعف، وذلك بحسب ما هيأهم الله له وما اختصهم به من استعدادات ممتازة، ولذلك يظل اهتداء الأمة إلى الفكرة كامنًا فيها إلى أن يتجمع تأثير ذلك الإحساس فيمن نالوا قدرًا أعلى من الإحساس، فيوقظهم ويلهمهم ويبعث فيهم الحركة؛ أي: زيادة مناقشة القضايا -كما أسلفنا- والبحث لمعرفة أسباب تلك المصائب، والطرق المؤدية للخلاص، فتظهر على هذه الفئة أعراض الحياة قبل غيرها.

إن هذه الفئة التي نالت قدرًا أعلى من الاحساس هم المرآة التي تنعكس عليها إحساسات الجماعة؛ لأنه كما قلنا فإن المصيبة الباعثة على التفكير إنما كانت شاملة للجميع، وكون هذه الفئة التي تتمتع بحس مرهف كان أثر تلك المصيبة عليها أكبر، فإن ذلك دفعها إلى البحث والتنقيب حتى توصلت للفكرة وتمركزت فيها فدفعتها إلى التحرك، ولكن عن وعي وإدراك، فكانت هذه الفئة هي العرق النابض بالحياة، والقلة الواعية في الأمة، وهم عيون الأمة التي تراقب وتلاحظ ما يحصل في المجتمع من أحداث وما يجري فيه من تغير.

ووجود هذه الفئة الواعية في الأمة أمر طبيعي، واندفاعها للعمل أمر طبيعي، وكثيرًا ما وقعت هذه الفئة الواعية في مطبات الانتقال من الإحساس إلى العمل مباشرة مما أدى إلى إجهاض ثورتها وإفراغ مخزون حماسها، ولذلك نقول أن هذه القلة الواعية تكون حائرة قلقة، حيث إنها تبصر أمامها دروبًا

متعددة فتحتار أي الطرق تسلك، منهم كما قلنا من ينتقل من الإحساس إلى العمل، ومنهم من يختار طريقًا لا يتناسب مع الفكرة التي توصل اليها، فاختار مثلًا الوعظ والإرشاد، ومنهم من حمل السلاح مع الوعظ والإرشاد، ومنهم من رأى بناء شخصية الفرد، إلى غير ذلك من اختلاف في اختيار الدرب، وذلك نظرًا للتفاوت في نسبة الوعي الموجود فيها، وبناءً على ذلك يكون منطق الإحساس؛ أي: الفكر الناشئ عن إحساس صادق أقوى في بعضها من البعض الآخر، وهي الفئة التي لا تقف عند حدّ المظاهر في حكمها على الأشياء، بل التي بالإضافة إلى معرفتها أسباب الانحطاط في الأمة والبلوى التي تحيط بها ومعرفة الفكرة التي يعالَج بها هذا الواقع لم تقف عند هذا الحد لترتجل طريقة من الطرق أو دربًا من الدروب؛ لأنها اعتادت أن يكون الفكر الناشئ عن إحساس "منطق الإحساس" منهجًا لتفكيرها، فتنكبّ على دراسة الطرق جميعها لتهتدي إلى الطريق الصحيح الذي تضمنته الفكرة نفسها، وهي معرفة الهدف والغاية أولًا، ثم معرفة الطريق الموصل إلى هذه الغاية مما تضمنته الفكرة نفسها، فتحدد غايتها، وتعرف هدفها، وتبصر الطريق الموصل إليه بوضوح كامل، وبذلك تكون قد اهتدت إلى المبدأ بفكرته وطريقته. فتعتقده عقيدة راسخة؛ لأنها مبنية على براهينها، وموافقة لما فطر عليه الإنسان. وباعتقادها هذا يكون المبدأ قد تجسّد فيها أو كان عقيدة لها، فتكون هذه العقيدة مع ما يبنى عليها من أفكار وما ينبثق عنها من مفاهيم "حسب فهم

هذه المجموعة"؛ أي: ثقافة الحزب، هي الرابط بين أشخاص هذه الفئة، إذًا فالرابطة الحزبية هي العقيدة العقلية؛ أي: المبدأ والثقافة الحزبية، ونعني بالثقافة الحزبية: (مجموعة الأفكار التي تبنّاها الحزب -حسب فهمه- مبنيةً على العقيدة، ومجموعة المفاهيم والأحكام التي انبثقت عن هذه العقيدة، ومجموعة المعارف والمقاييس التي آمن بها وتبنّاها). هذه هي الرابطة الحزبية وليس فقط العقيدة، وهي بمجموعها على أساسها تتكون عقلية الأعضاء، وتنصقل على أساسها نفسياتهم، وهي معيار انتمائهم لهذا الحزب.

إن الانسان إنما يسيّره مفاهيمه عن الحياة، وبمقدار إيمانه بفكرة ما يكون اندفاعه فيها، فإذا وصلت الفكرة إلى حد القناعة المطلقة، بل وصلت إلى حد انعقاد القلب عليها، فمن البديهي أن تكون هي الموجِّه له في سلوكه، وحين يقنع القناعة المطلقة والتصديق الجازم بوجوب حمل فكرة ما فإن المشاعر المنبثقة عن هذا الإيمان تدفعه دفعًا للقيام بما يجب عليه، وحين نقول أن المبدأ قد تجسّد في شخص ما فإن ذلك يعني أن ذلك الشخص قد أصبح مبدًا يمشي على الأرض؛ أي: أن هذا الشخص أصبح منقادًا بكليته (فكره وشعوره) لهذا المبدأ، وهذا يعني أن المبدأ لا يطيق أن يبقى حبيسًا؛ أي: أقل ما يقال فيه أنه يُرى مجسّدًا في هذا الشخص، ناهيك عن وجود مفاهيم في هذا المبدأ توجب على مَن تجسّد فيه حملَها للناس، فمن جهة سلوكهم الطبيعي إنما يكون بحسب مفاهيم المبدأ وأحكامه مسيَّرةً حسب منهجه، وأما ما جاء فيه من حيث تحديد

الهدف والغاية فإن من يتجسد فيه المبدأ يرى أن وجوده في الحياة هو من أجل المبدأ، وأن غايته في هذه الحياة إنما هي من أجل تحقيق غاية المبدأ والهدف الذي بيّنه، فهو كما نقول في تلاوتنا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

وحين نقول إنه أصبح وجوده من أجل المبدأ، وعرف معنى وجوده في الحياة فإنما يعني ذلك:

أ) أولًا: الالتزام سلوكيا بأحكام هذا المبدأ، والتقيُّد بما أمر به أو نها عنه.

ب) ثانيًا: العمل على نشره في الناس، بالدعوة إليه وحده، وإيجاد الوعي العام عليه.

وحين يتجسد المبدأ في هذه الفئة الأولى التي اهتدت إليه لا تلبث الحلقة الأولى أن تتحول إلى كتلة حزبية، ثم تتحول الكتلة الحزبية إلى حزب مبدئي متكامل، فيأخذ في النمو الطبيعي في ناحيتين؛ **الأولى**: التكاثر في خلاياه، بإيجاد خلايا جديدة تعتنق المبدأ وتؤمن به عن و عي وإدراك تامين بحيث يعمل على تجسيد المبدأ فيها كذلك، تماما كما تجسد في الفئة الأولى دون تمييز، وأما الناحية **الثانية:** فهي بإيجاد الوعي العام عليه عند الأمة كلها، وكنتيجة طبيعية لإيجاد الوعي العام عند الأمة على هذا المبدأ تتوحد الآراء والأفكار والمعتقدات توحُّدًا جماعيًا إن لم يكن إجماعيًا، وبذلك يتوحَّد هدف الأمة وتتوحد عقيدتها ووجهة نظرها في الحياة، وحين نقول تتوحد الأفكار فإنما نعني الأفكار العامة المتعلقة

بمعالجة المشاكل التي تكتنف الأمة في حياتها الخاصة، كالقول بأن الدولة الإسلامية هي الخلافة، فمن هو الخليفة، وما هي صلاحياته، ومن الذي يعيّنه، ومتى يُعزل، وما هو النظام الاقتصادي، أو كيف تعالج الأمة مشاكلها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، ومثل ذلك، وأما حين نقول تتوحد الآراء فذلك فيما يتعلق بنظرة المسلمين إلى غيرهم وعلاقتهم مع هذا الغير، مثل توضيح أحكام الذمّي والنظرة إليه، وأما توحيد المعتقدات فقد تسرب إلى الأمة بعض الأفكار العقيدية المتأثرة بالفلسفة الهندية أو اليونانية، كالصوفية والكلامية وغيرهما، ومما يقطع الطرق على مثل هذه الأفكار إيجاد القاعدة الثابتة عند الأمة بأن العقيدة لا تؤخذ إلا عن يقين، وأن خبر الآحاد يفيد الظن ولا يفيد اليقين، وكإيجاد القاعدة المتعلقة بالأعمال والقائلة بأن الشريعة هي من عند الله، وأن أفعال الانسان مقيدة بالحكم الشرعي، ولا مجال للعقل في التشريع، بل مهمة العقل هي فقط فهم النصوص الشرعية واستنباط الأحكام منها، فيكون مصدر التشريع هو الوحي فقط، هذا ما نعنيه بتوحيد الأفكار والآراء والمعتقدات، وأبرز ما يؤدي إليه ذلك هو وحدة الهدف عند الأمة، وذلك بإيجاد الخلافة القوّامة على التطبيق والتنفيذ، حتى يتم تحقيق الغاية التي هي استئناف الإسلامية وحمل الإسلام للعالم.

وإذا ما قام الحزب بهذا الدور من توحيد الأفكار والآراء والمعتقدات، فإنه يكون قد أصبح بوتقةً تصهر الأمة، والبوتقة هي الوعاء الذي تصهر فيه

المعادن وتتنقى مما علق بها من أوساخ أو رمال أو معادن أخرى، وصهر الأمة في بوتقة الحزب وتوحيد الأفكار والآراء والمعتقدات فيها إنما يؤدي إلى استبعاد الأفكار الدخيلة والآراء الضعيفة والمعتقدات الباطلة التي أدت إلى انحطاط الأمة، مثل فصل الطاقة العربية عن الطاقة الإسلامية الذي أدى إلى ضعف فهم الإسلام في النفوس، وتطبيق بعض الأحكام الخاطئة التي أدت إلى كثير من الفتن والمصائب مثل: ولاية العهد في نظام الحكم، أو الأفكار التي وُجِدَت بعد انحطاط الأمة مثل: نظرية التعايش بين الأديان "الدين لله والوطن للجميع"، وأمثال هذه الأفكار الكثير، فالعملية الصهرية تعني إبعاد هذه الأفكار الفاسدة، وتوحيد الهدف والغاية، وبعث قواعد التفكير وغير ذلك.

والذي يتولى هذه العملية هو الحزب، وهي التي تسبب النهضة في الأمة، وذلك بإيجاد قاعدة معينة للتفكير للوصول إلى أرقى الأفكار -أي: النهضة-، وهي عملية شاقة لا يقدر عليها إلا الحزب؛ لأن الحزب يعيش بفكرتها، بل إن الفكرة هي حياته، أو لأن حياته وقف على هذه الفكرة، وهو يدرك كل خطوة من خطواته.

قلنا إن الإحساس العام الذي كان يكتنف الأمة عند تعرضها للمصائب والهزات، قد أوجد عمليات فكرية عند الأمة، وأوجد قضايا يبحث فيها عن الأسباب والمسببات، وظهر نتيجة لذلك ثلّة واعية توصلت بمنطق الإحساس

إلى مجموعة من الأفكار، أو اختلفت في طرق متعددة ودروب مختلفة، وكان من بين هذه الأفكار التي أشرقت في الأمة فكر الحزب الناشئ عن إحساسه، فكان هذا الفكر واحدًا من مجموعة أفكار متعددة كان واحدًا منها، ولكنه كان أضعفها؛ لأنه أحدثها ولادةً، وأجدّ وجودًا، ولم يتمركز بعد، ولم توجد له أجواء، لكنه نشأ عن منطق الإحساس؛ أي: أن فهمه ناتج عن الإدراك الحسي الذي يوجد الاحساس الفكري؛ أي: يوجد إحساسًا واضحًا نتيجة للفكر العميق، والإدراك الحسي إنما ينشأ حين نفكر في واقع محسوس ونربط هذا الواقع المحسوس بمعلومات سابقة محسوسة مقطوع بصحّتها ونخلص إلى نتيجة حسية، فتكون هذه النتيجة فكرًا صحيحًا صادقًا؛ أي: أن ذلك يسير حسب قواعد المنطق، حيث نضع مقدمةً صغرى حسية صحيحة، ومقدمةً كبرى صحيحة، ونستنتج من ذلك نتيجة حسية، فتكون هذه النتيجة صحيحة إذا أُمن الانزلاق في متاهة، والطريق العقلي المنطقي طريق جيد للوصول إلى أرقى الأفكار إذا اقتصر البحث به على القضايا الحسية.

وفكر الحزب إنما جاء نتيجة التفكير الحسي؛ أي: البحث في القضايا المحسوسة، فكان فهمًا ناشئًا عن الإدراك الحسي، لا الوهمي ولا الخيالي، ولا الافتراضي، وفكر هذا حاله حريٌّ به أن يتركز في النفس وأن يؤمن به الإنسان، ونتيجة لهذا الإيمان والتركز فإنه يحرك في النفس الأحاسيس الصادقة الناشئة عن مشاهدة الواقع بناءًا على ما في النفس من إيمان؛ أي: ما في النفس من فكر

عميق، مثال: (لو التقى شخص فتاةً لا يعرفها فأعجبه شكلها، وأعجبه حديثها، فرغبت نفسُه بالزواج منها، ففاتحها بالأمر، فقبلت، فكانت مشاعره وأحاسيسه تجاهها باعتبار أنها زوجة المستقبل، ونظرته اليها أنها زوجة المستقبل، وهي كذلك، ولكن عند مفاتحة الأهل تبيّن أنها أختُه في الرضاع، فماذا تصبح مشاعره وأحاسيسه الآن، بدلًا من النظرة إليها على أنها زوجة المستقبل، صارت النظرة الآن أنها الأخت التي عليه حمايتُها، فتغيرت أحاسيسُه تجاهها بتغير فكرته عنها، وكذلك تتغير أحاسيسه في اتجاه ثالث مغاير لهذا فيما لو عرف منها أنها شيوعية أو درزية أو علوية). فالأحاسيس الفكرية هي الأحاسيس التي تنطلق من أفكار عميقة مركزة في النفس، ولما كان فكر الحزب ناشئًا عن إحساس فإن فكره يكون عميقًا ناتجًا عن الإدراك الحسي، ونتيجة لعمق ذلك الفكر فإن الأحاسيس التي توجد عنده إنما يكون مصدرها ذلك الفكر العميق الذي آمن به، ومن تمتع بمثل هذا النوع من الإدراك العميق وهذا الإحساس الصادق من البديهي أن ينطبع به فيجعله مخلصًا، ولو أراد ألا يكون مخلصًا فإنه لا يقدر على ذلك؛ لأن ذلك الإدراك وهذا الإحساس يكون قد ملك عليه نفسه وسيّره في الوجهة التي يحتّمها هذا الفكر والإحساس.

وحين يتجسد هذا الفكر في المخلص عقيدةً وثقافةً فإنه يحدث في نفسه ثورة جامحة، وليست هذه الثورة سوى انفجار بعد احتراق في الشعور والفكر،

والتقاء الفكر والشعور على نقطة معينة إنما يدفع من يحمله دفعًا إلى الإقدام والتضحية بكل شيء، فالمشاعر والأحاسيس من أقوى الدوافع للعمل عند الإنسان. وحين تتضافر مع هذه الأحاسيس الأفكارُ الموجبة للعمل فإنه لا يبقى أي تردد في النفس يدفعها إلى التقاعس أو الإحجام، بل يشيع في النفس التلهب والحماس والصدق، ومن البديهي أن يؤدي ذلك إلى المنطق والفكر، فيكون نارًا تحرق الفساد، ونورًا يضيء طريق الصلاح.

ونتيجة لذلك فان الدعوة لا بد لها أن تدخل في صراع فكري حادّ مع الأفكار الفاسدة، والعقائد المتداعية، والعادات البالية، فتحاول هذه أن تدافع عن نفسها، وبهذا يحصل الاحتكاك بالمبدأ الجديد، وهذا ما يزيد في قوته، ويبلور فكرته في نفوس حملة الدعوة، وينمّي عقلياتهم، ويصقل نفسياتهم، وما هي إلا فترة صراع قصيرة حتى تتداعى الأفكار والعقائد والطرق، ويبقى مبدأ الحزب وحده في الأمة هو وحده فكرها وهو عقيدتها، هذا لو كانت الأوضاع طبيعية، وترك باب الصراع مفتوحًا، إلا أن وعي الكفار على ذلك جعلهم يلجؤون إلى أخبث الأساليب في التصدي للدعوة، كالإهمال والتجاهل، ومنع وسائل الإعلام من الكتابة أو الإعلان عن أي أمر يتعلق بالحزب بالمدح أو القدح، ومحاربة حملة الدعوة في أرزاقهم، وأجسادهم، ونشر الدعايات الخبيثة ضدهم، ومحاولة حرف الحزب عن خط سيره، وإبعاده عن الطريق التي تبناها، ما جعل الفترة الزمنية تطول أكثر مما كان متوقعًا.

ومتى وحَّد الحزب الأفكار والمعتقدات والآراء فإنه يكون قد صنع الأمة على عين بصيرة، وصهرها ونقّاها، فكانت أمة واحدة، ووجدت الوحدة الصحيحة، فالعبرة في وحدة الأفكار العامة التي تتعلق بتنظيم حياة المسلمين، وهذا لا يتأتى إلا بقيام دولة الخلافة بتبنيها أفكارًا وأحكامًا محددة تنظم بها حياة الناس، أما وحدة المعتقدات فمن فضله تعالى أن الأسس في العقيدة لم يلحقها ضلال أو بُعد، ولو أنه أصاب بعض فرعيات أفكارها غشاوات أو سوء فهم، سرعان ما يزول بتثبيت فكرة واحدة في الأمة وهي أن العقائد لا تؤخذ إلا عن يقين. فبهذه الفكرة وحدها نستطيع إبعاد كل ما لحق بأفكار العقيدة من خزعبلات أو ترّهات، أو تأثر بالفلسفة الهندية أو اليونانية أو الرأسمالية أو غير ذلك، وأما وحدة الآراء فإن الأمة الإسلامية بمجموعها ترى أنها أمة من دون الناس، ومن سواها الكفار، وأنها بمجموعها تميز في علاقاتها مع الكفار في كثير من الأحكام، فهي تميز بين الكتابي وغير الكتابي مثلًا في قضايا اللحوم والزواج وغير ذلك.

وبناءً على هذا النجاح في وحدة الأمة ينتقل الحزب بنجاح في قيادة الأمة القيادة العملية في حمل الرسالة للعالم، وتنفيذ أحكام الإسلام جميعها، وإيجاد الطريقة الصحيحة في التفكير لإيجاد النهضة الحقيقية على أساس ذلك المبدأ، والعمل على نشره عند كافة الأمم والشعوب تنفيذًا لإيمانها بأنها إنما تعيش من أجل الإسلام، ومن أجل حمل هذا المبدأ إلى العالم تنفيذًا لما جاء في عقيدة هذا

المبدأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، وقد شهد علينا رسول الله ﷺ حيث بلّغ الرسالة وأدى الأمانة، ووصلنا كتاب الله جلّ ثناؤه وسنة رسوله ﷺ وهما الحجة علينا يوم الدين، فبقي أن نتمكن من إقامة الحجة على الناس؛ أي: على العالم، بأن نوصل إليهم الإسلام، ونقيم عليهم الحجة أمام الله عز وجل.

الحركة الجماعية

إن هذا التكتل الحزبي حركة جماعية، ولا يمكن أن يكون إلا حركة جماعية؛ لأن التكتل الصحيح لا يكون إلا حركة جماعية وليس حركة فردية، إذ أن الحركة الفردية لا يمكن أن تنهض بالأمة، ولا أن تصل إلى الهدف الذي أملته الفكرة ؛ أي: عقيدة المبدأ، ولما كان الأمر كذلك كان لزامًا على القائمين على الحزب في البلاد الاسلامية أن يبحثوا البحث الدقيق عن الحركات الجماعية، وأن يفهموها فهمًا عميقًا؛ لأن فهم الحركات الجماعية يسهّل علينا أن نزن كل حركة جماعية بميزانها السويّ، وذلك بدراسة البيئة التي عاشت أو تعيش فيها، والظروف التي لابستْها أو تُلابسُها، ومدى عمل الأفراد النابهين في تسيير أمرها، وتسهيل مهمتها في القضاء على ما يعوق نجاحها أو يعرقل سيرها.

ويُقاس نجاح الحركة الجماعية بقدرتها على إثارة روح الامتعاض في الناس، وحثهم على إظهار امتعاضِهِم كلما جدَّ من السلطة الحاكمة أو النظام القائم ما يمَسُّ مبدأها هذا، أو تحكم به وَفق مصالح السلطة وهواها.

ومن ملاحظة الحركات الجماعية التي لها قوة التأثير في عصرها يظهر أنها لا تنشأ حين يكون الرخاء ميسورًا والحقوق الطبيعية للإنسان محققة والرفاهية متوفرة والكفاية الشخصية هي المقياس لتولّي الأمور الهامة؛ ذلك لأن دوافع الحركة عند الناس ليست موجودة، فالحاجة متوفرة، والحقوق محفوظة، وفرص تحقيق الرفاهية وتأمين الكماليات مؤمَّنَة، ولا شعورَ بالظلم؛ لأن الأمور تسير من حيث المسؤوليات بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب بغض النظر عن وزنه الاجتماعي، ومثل هذه الأمور التي تغطي حاجات الانسان وجوعاته تمنع وجود أية رغبة عنده في التغيير، فهو بطبعه لا يتطلع إلى أكثر من هذه الأمور، فمتى توفرت أخلد إلى الهدوء والراحة والاستمتاع بما هو متوفر لديه، وحتى لو كان طموحًا فان باب الطموح مفتوح على مصراعيه؛ لأن تولّي المسؤوليات والحصول على أعلى الوظائف موقوف على الإمكانيات الشخصية، فلا واسطة ولا محسوبية ولا رشوة. ولذلك فإنه لا يلحظ حدوث حركات جماعية في مثل هذه المجتمعات، وخصوصًا حين يكون العرف العام قد استقر على مفاهيم معينة هي عين المفاهيم والنظم التي تقوم السلطة بتنفيذها.

ولذلك حين نجد حركة جماعية في قُطر من الأقطار لا بد من معرفة الظرف الذي نشأت فيه، والأحداث والوقائع التي أدت إلى ظهورها أو تزامنت مع ظهورها؛ أي: لا بد من معرفة طبيعة ذلك المجتمع بما فيه من

عادات وتقاليد وأعراف، ومعرفة الأحداث السياسية أو الاجتماعية التي دفعت بالناس بشكل جماعي إلى الحركة، ومعرفة الملابسات التي استغلتها الحركة حتى حركت الناس معها، وأهل الفعاليات في هذه الحركة، هل هم من أهل الفكر يقودون الحركة فانقاد الناس لهم، أم هم من أهل البندقية والسيف، أم هم من أهل المال وتحقيق المصالح، ومعرفة ما هي الأوتار التي ضرب عليها هؤلاء، ومدى إمكانية هؤلاء الناس في تسييرها والاستمرار بها، ومدى قدرتهم على تحقيق ما منّوا به الناس من آمال أو مصالح، ومدى قدرتهم على إزالة ما يعرقل سير هذه الحركة أو القضاء على ما يعيق نجاحها، ومعرفة ما إذا كان النافذون والنابهون في هذه الحركة هم القادة المباشِرون للناس، وهم المحرّكون للناس بالمخاطبة المباشِرة، أم من خلال مفاتيح معينة؛ أي: من خلال الزعامات المحلية في المجتمع بل في المدينة والأحياء، ومعرفة ما هي الوسائل والأساليب التي يستعملها هؤلاء الناس لأخْذِ هذه الزعامات المحلية، إن كان عن طريق الزعامة المحلية، أو كان بالمخاطبة المباشرة للناس من قبل النابهين في هذه الحركة، وما هي الأساليب والوسائل التي تتبع في إثارة الامتعاض والتعبير عن هذا الامتعاض حين تقدم السلطة على تصرف يتعارض مع مبادئ هذه الحركة، أم أنها تسيّر ما تنادي به الحركة من قبل السلطة الحاكمة حسب هوى هذا الحاكم ومصلحته.

بعد فهم هذه الحركات ومدى فعاليتها وأساليبها ووسائلها؛ لا بد لنا كحركة جماعية من فهمِ واقع المجتمع الذي نعيش فيه والمجتمعات المحيطة بنا؛ أي: معرفة الرأي العام، ومعرفة الأعراف العامة، ومعرفة العادات والتقاليد، ومعرفة القضايا الحساسة التي يتأثر الناس بها، ومعرفة الفعاليات في المجتمع وما يسمى بالمفاتيح والزعامات المحلية، ومدى تأثيرها على الناس، هذا من حيث دراسة المجتمع، أما من حيث علاقة المجتمع بالسلطة؛ أي: بالحكام، وعلاقة هؤلاء الحكام بالأمة، وقوام كل منها، وحقيقته، من حيث ارتباطه بالإسلام وإيمانه به، والآراء والأفكار والأحكام التي دعا إليها الإسلام، فهل هؤلاء الحكام مؤمنون بالإسلام، وهل فيهم القابلية لتقبل هذه المفاهيم، وهل فيهم قابلية الانفكاك عن أسيادهم والأخذ بما جاء به الإسلام؟ أم أنهم عملاء لا يُرجَى انفكاكهم، أو أنهم أنفسهم أعداء للإسلام ويحاربونه ويرفضون أي فكر له؟ وذلك لمعرفة كيفية التعامل مع هؤلاء الحكام، ومعرفة كيفية تقديم النصح لهم، أو إثارة الأمة ضدهم، وهل ما وصلت إليه حال هذه الأفكار والأحكام والآراء في المجتمع من إبعاد عن الحياة يثير امتعاضهم، ويأسَفون لما حصل، أم إنهم من العاملين على إبعاد هذه الأحكام عن الحياة؟ وإن وُجد من يهتم بمثل هذه الأمور فإلى أي مدى يكون اهتمامه بها؟ فقد حدث تغيير في أحكام الإسلام، كما استبدلت به أحكام كفر صراح، كما حدثت اجتهادات أو زُعم أنها اجتهادات، فهل اهتم هؤلاء بهذه الاجتهادات إن كانت اجتهادات

صحيحة أم أنها محاولة لعدم إثارة المجتمع؟، وسواء حصلت هذه الاجتهادات في الأصول أو الفروع، وهل يُقرّها الإسلام أم لا يقرّها الإسلام، كل هذا لا بد من معرفته وإدراكه بالنسبة لكل حاكم من حكام المسلمين.

هذا بالنسبة للحكام، أما بالنسبة للأمة فلا بد من معرفة حالتها النفسية، ومعرفة اهتمامها بهذا الأمر، وهل يثير فيها النقمة وهي ترى أحكام الإسلام تختفي من حياتها ويستبدل بها أحكام كفر صريح وتطبق عليها أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع التي جاء بها الكافر وطبقها عليها بالقوة وبالمكر وبالمال، فما هو موقف الأمة من هذه الأمور؟ وهل في الضرب على هذا الوتر ما يحرك مشاعر الأمة، أم أنها مشغولة بتدبير عيشها وتأمين مصالحها؟ ذلك لأننا إن أردنا تحريك الأمة فلا بد من إدراك الأوتار التي يجب الضرب عليها، ولذلك لا بد من التأكد مما إذا كان الإسلام ما زال يحتل مركز التنبُّه فيها، وهل الإساءة إليه تثيرها؟ لأننا إنما نريد أن نحركها على أساس عقيدتها، وهل تشعر هذه الأمة أن أسباب شقائها وتعاستها إنما هي بسبب غياب إسلامها عن واقع الحياة؟

أضف إلى ذلك معرفة جمهرة المفكرين والمثقفين في الأمة، وموقفهم من الإسلام، وما عندهم من ميول، ومدى تقبّلهم للنظم القائمة المطبقة على الناس، وما الذي يشغل تفكيرهم: هل هو فساد النظام، أم فساد تطبيق النظام كما يدّعون؟ وهل يرون فساد الديمقراطية وأفكارها، أم أنهم يرون أن المفسدة

سببها إساءة تطبيق الديمقراطية وكبت الحريات أو تقييدها؟ وذلك لمعرفة كيفية مخاطبتهم والأمور التي تناقش معهم، ولا بد من معرفة مدى صلابتهم وقوة عودهم، أو ضعفهم وانصياعهم للإغراء والتهديد.

إن هذه المعرفة ضرورية للحركة الجماعية؛ لأنها على ضوء هذه المعرفة تستطيع أن تختار الأساليب والوسائل التي يقتضيها الحال عند محاولة قيادة الأمة ودفعها للعمل، كما تستطيع أن تتخذ ما يلزم تجاه الحاكم وزمرته، أو جمهرة ما يسمى بالمفكرين والمثقفين وأصحاب الفعاليات، حيث يجب استعمال الكلمة في موضعها والسيف في موضعه، كما قال الشاعر:

ووضعُ النَّدى في موضع السيف دائمًا   مُضِرٌّ، كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدى

معرفة الكتلة نفسها

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

إن مَن يبتغي القوامة على المجتمع، ويريد أن يحيط علمًا بما يجري حوله، ومعرفة أحوال المجتمع وأحوال حكامه، وعلاقة الحاكم بالمجتمع، والمجتمع بالحاكم، وموقف كل منهما من مبدئه، ومن الإسلام وأحكامه وآرائه، وما لحقها من تغيير وتبديل واجتهاد، لا بد له من دوام مراقبة كتلته، ومعرفة واقعها، والتأكد من الأسس التي قامت عليها الكتلة، والتأكد من أنها ما زالت سائرة على تلك الأسس.

فقد قامت هذه الكتلة نتيجة منطق الإحساس. فهل ما زال إحساسها مرهفًا، فلا تفوتها هزة في المجتمع، ولا تغفل عن أي تغيير أو تبديل يطرأ من حولها؟ أي: هل أنها ما زالت تعيش مع الناس، فتحسّ بإحساسهم، وتشعر بشعورهم وبما يعانون من عسف وظلم؟ أم أن كثرة المصائب وعظمها بلّد إحساسها، وعيشها بأفكارها ومفاهيمها جعلها تعيش في عزلة عن الناس ومدى متابعتها للأحداث وانفعالاتها معها، أم أن الناس قد سبقوها نتيجة توقّفها ولو للحظة، وأخذت تركض وتلهث محاولة اللحاق بالمجتمع، حتى أضحى هو القائد لها بدلًا من أن تقوده هي؟

كما أنه من المعروف أنها قامت على الفكر العميق، وسارت تعالج القضايا بفكر عميق، فهل تأثرت بسطحية المجتمع وتفاهة التكتلات الأخرى، وأخذت تعالج الأمور بسطحية وتفاهة، وتأخذ بمظاهر الأشياء مبتعدةً عن العمق في البحث بحجة أن الناس لا يدركون العمق ولا يستوعبونه، وبالتالي فإن المجتمع أدار لنا ظهره، وعزف عن سماع آرائنا، وقراءة نشراتنا، والاطلاع على كتبنا، ولهذا لا بد من التبسيط، فأدى ذلك إلى السطحية والتفاهة وترديد التعابير المبتذلة وسلكت طريق الوعظ والارشاد؟

كما سارت الكتلة في طريق الإخلاص الخالص، فهل ما زالت تعرف هدفها، وتعيش من أجله، ولا تسير إلا في الطريق الذي حدده المبدأ؟ أم أنها أخذت تلجأ إلى المناورات، وتحاول التقرب من الآخرين بحجة وحدة الأمة،

ووحدة الحركات، وتوحيدها؟ وبحجة المحافظة على شبابها، وعدم تعرضهم للأذى؟ إن الدعوة لا تقبل الاشتراك، ولا بد أن تغرس في نفوس أبنائها أنهم إنما يعيشون من أجل الإسلام، وأن عملهم الحياتي إنما هو من أجل مساعدتهم على حمل الدعوة؛ أي: على الايمان المطلق بأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله تعالى.

وهل تَقبُّل المجتمع من حولها لأفكار الكفر واحتضانه لها كالحرية والديمقراطية والوطنية، وما يقوم فيه من تكتلات أو جمعيات أو تنظيمات أو أعمال قد أضعف ثقتها بشريعة الإسلام وأضعف إيمانها به، حتى بدأ يتردد على بعض الألسن أننا نريد إسلامًا يتناسب مع القرن العشرين، أو ما يلاحظ من بعض التصرفات التي تأثر فيها شباب التكتل بما في المجتمع من عادات وتقاليد مع وضوح مخالفتها للإسلام؟ أو محاولة تبرير هذه المخالفات بمخارج يبيحون بها لأنفسهم مثل هذه المخالفات؟ كالذي يستعمل الكولونيا بحجة أنها كحول ميثيلية، أو أن نسبة الكحول فيها أكثر من ٦٠٪ فأصبحت بحكم السمّ، إلى غير ذلك؟

ولا بد من ملاحظة مدى تأثرها بما يقوم به الحكام في مجالها من أعمال ظلم وتعسف، وما تعرض له شبابها من تعذيب وتشريد وسجن وقتل ومحاربة في لقمة العيش، وما تحاوله من إغراءات أو تقديم منح ومساعدات، فلا بد أن تكون الكتلة ثابتة صلبة لم يؤثر فيها ذلك بشيء.

بعد ذلك كله لا بد لهذه الكتلة من التحقق مما عندها من قيم ذاتية، ومن أن منطقة إيمانها آمنة، وكذلك من تشبُّعها بالأفكار الإسلامية العميقة، وتبنّيها للمصالح العامة، وشعورها بالمسؤولية، فكل ذلك لا بد أن يكون كاملًا، فلم تؤثر عليها الأحداث بشيء، ولم يثنها عن عزمها ما لحقها من عسف وجور، بحيث أصبح المبدأ في حصن حصين في قلوب وعقول المؤمنين.

وأخيرًا: لا بد من التأكد دائمًا من أن هذه الفئة المؤمنة قد وطّدت العزم على المضيّ قدمًا حتى تحقق هدفها، وتبلغ غايتها، وتضطلع بالمسؤولية كاملة، مع تقديرها لجميع النتائج واستعدادها لتحمّلها والقيام بأعبائها.

إن هذه الدراسة العميقة للحركات الجماعية تاريخيًا وواقعيًا ترشد إلى حقيقة سير الحزب باعتباره حركة جماعية، والتأكد من كونه مستكملًا شرائطه، سائرًا في طريقه الطبيعي، وقد وضعنا هذه الأسس المستقاة من الدراسة الدقيقة للحركات الجماعية وما يجب أن تكون عليه، وذلك لجعلها مقياسًا تُراقِب على أُسُسِه هذه الحركة الجماعية، وميزانًا تعرف بموجبه مواقف هذه الحركة وخط سيرها، حتى إذا لوحظ منها أي زلل أو تنكّب أو خروج عن الطريق، أو لوحظ أن هذه الدراسة تقتضي تعديلًا في الجهاز، من حيث لجانه وأجهزته وصلاحياتها وقانونه الاداري، أو من حيث المرونة في السير حسب مقتضى ما يتطلبه الأمر، أو اقتضى صلابة في الكفاح، يصار عندها إلى إيجاد الأساليب والوسائل التي تضمن له أداء رسالته في إنهاض الأمة وبنائها على

أساس أنها أمة تحمل رسالة لجميع الشعوب والأمم، لذلك لا بد أن يتركز في الأمة معنى الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾، ولا يمكن أن أشهدَ على أحدٍ إن لم أكن قد بلَّغتُه وأقمتُ الحجة عليه، تمامًا كما فعل رسول الله ﷺ وهو يقول: (ألا هل بلّغت، اللهم فاشهد).

سير التكتل الحزبي الصحيح

يسير تكتِيلُ الحزب تكتيلًا صحيحًا في الطريق الآتي:

الاهتداء إلى المبدأ من قِبَل شخص فائق الفكر والإحساس: قلنا إن العملية الفكرية وتكوين القضايا والبحث في أسباب الأزمات ينشأ في الأمة نتيجة للهزات والمصائب التي تحيط بها، ونتيجة لهذه العملية يهتدي أحد أفراد هذه الأمة إلى المبدأ ويبصر طريق الخلاص، ولما كان هذا الاهتداء للمبدأ نتيجة لعملية فكرية مبنية على إحساس صادق، فإن من الطبيعي أن يتفاعل هذا الشخص بهذا المبدأ، فيتبلور فيه حتى يصبح جزءًا من كيانه، فالفكرة واضحة بُنيتْ على العقل، والطريقة تضمنتها الفكرة كذلك، بالإضافة إلى أن الغاية والهدف قد حددتهما الفكرة أيضًا، وبهذا تكون **الخلية الأولى** قد تكونت. وقد بيّنا أن الفكر لا يطيق أن يبقى حبيسًا، لذلك لا تلبث هذه الخلية أن تتكاثر، إلا أنه تكاثر بطيء، حيث يوجد أشخاص آخرون من نوعية الشخص الأول أو قريبًا منها يكوّنون خلايا كذلك، فيتم الاتصال ببعضهم البعض اتصالًا كليًا

بالمبدأ، فيتكون منهم **الحلقة الأولى** للكتلة الحزبية، والتي تتكون منها قيادة الحزب، فلم يكن اتصالهم بناءًا على معرفة سابقة، ولا لصداقة قديمة، ولا لمصلحة آنية، وإنما كان اتصالهم بالمبدأ وحده، وجرى تكتلهم على المبدأ وحده، فكان المبدأ هو محور هذا التكتل، وكان الإيمان به ووجوب العمل له هو القوة الجاذبة لهم حوله؛ أي: أن الرابطة التي جمعت بينهم هي المبدأ، والمبدأ وحده.

تكون الحلقة الأولى -عادةً- قليلة العدد، بطيئة الحركة. وهذا أمر طبيعي، فبالرغم من أنها تعبر عن إحساس المجتمع الذي تعيش فيه، إلا أنها حين تعبر عن هذا الإحساس فإنها تستعمل ألفاظًا وتعابير تختلف عما اعتاد المجتمع سماعه، مثل تحديد معنى المبدأ، تحديد معنى العقيدة، توضيح معنى الاستعمار، وبدلًا من كلمة استقلال -تلك الكلمة المبتذلة- تستعمل هذه الحلقة تعبير: "استئناف الحياة الاسلامية، وعودة الإسلام للحياة، وإقامة الخلافة"، وتهاجم الرابطة القومية والوطنية والمصلحية والروحية، إلى غير ذلك من التعابير التي لم يعتدْ المجتمع سماعَها، هذا بالإضافة إلى طرحها مفاهيمَ تخالف مفاهيم المجتمع السائدة، وإن كانت تعبر عن أحاسيس المجتمع حين تجعل قضية المجتمع هي عودة الإسلام للحياة، وتوضح أن المبادئ الأخرى كالشيوعية والرأسمالية إنما هي أفكار كفر، وأن أفكار الحرية والديمقراطية إنما هي أفكار كفر. وحين تبين أن العقائد لا تؤخذ إلا عن يقين، وأن الأحكام الشرعية مصدرها الوحيد هو الوحي، وأن كل مسلم مسؤول أمام الله، وليس الأمر

مقتصرًا على العلماء والفقهاء، وأنه لا رجال دين في الإسلام، وأن غير المسلمين من الرعية يجب أن يُنظر إليهم على أنهم أهل ذمة، لهم أحكامهم الخاصة، إن هذه المفاهيم وإن كانت مما يحس به المجتمع إلا أنه لم يعتد سماعها، وهذا ما يجعل هذه الكتلة قليلة العدد بطيئة الحركة؛ لأن الناس ينظرون إليها نظرة استغراب، بل إنهم يعتبرونها غريبة عنهم، ولذلك فإنه لا ينجذب إليها إلا من حباه الله قدرًا وافرًا من الاحساس المرهف الذي جعل فيه قابلية الانجذاب إلى مغناطيسية المبدأ المتجسد في هذه الحلقة الأولى.

يكون تفكير هذه الحلقة الأولى "القيادة" عادة عميقًا، وطريقتها في النهضة جذرية؛ أي: تبدأ من الجذور؛ أي إنها تعمل للنهضة انطلاقًا من العقيدة لتُوجَد في الأمة أمرين في طريقة تفكيرها:

(أ) العمق في البحث: بحيث يصل في أي بحث إلى الأصل الذي نشأ عنه.

(ب) الشمول: تمامًا مثل العقيدة التي بنوا عليها نهضتهم، حيث إن العقيدة فكرة كلية عن المحسوسات جميعها، وعما قبلها وما بعدها، ومن كان هذا حاله في البحث لا بد له أن يرتفع عن الواقع السيء الذي يعيش فيه فلا يجعله مصدر تفكيره، بل لا بد أن يحلق في الأجواء العليا حتى يستطيع أن يجعل الواقع موضع تفكيره، فيرى كل ما في المجتمع من سوء على حقيقته، كما ترى الكتلة بوضوح الواقع الجديد الذي تريد أن تنقل المجتمع إليه؛ أي: تبصر هدفها وغايتها بحيث إنها تستطيع أن تضع له المخطط الهندسي الذي يبين

هيكليته وقواعده وأجزاءه. كما أنها بسموّها عن هذا الواقع، ورؤيتها للواقع الجديد تستطيع أن تبصر الطريق المؤدية إليه، فتسلكه آمنةً مطمئنةً. وبذلك التحليق فوق الواقع الذي تعيش فيه، فإنها تبصر ما وراء الجدار.

أما بقية الناس فهم مرتبطون بالواقع يرون ما حولهم فقط. فكان مصدر تفكيرهم هو الواقع الذي يعيشونه، ولا يستطيعون أن يروا أبعد من ذلك، ولذلك تجد معالجتهم منبثقة من الواقع الذي يعيشونه يحاولون تكييف أنفسهم للعيش مع الواقع، ولا يعملون لتغيير الواقع؛ لأنهم لا يتصورون الواقع الذي يريدون أن ينتقلوا إليه، ولهذا تجد أن جميع الحركات التي وجدت لم تستطع أن ترسم لها صورة واضحة عن أهدافها وغاياتها، وإن دعت إلى أهداف فإنها لم تحدد طبيعة هذه الأهداف وهيكليتها، فأفكارها ما زالت بدائية، والصور التي في أذهانها مستمدة من الواقع الذي تعيش فيه، وقياسها الأمور قياس شمولي مغلوط، فطورًا ترى الإسلام اشتراكيًا، وطورًا تراه ديمقراطيًا، وترى أن نظام الحكم شورى، فالشورى هي نظام الحكم في الإسلام، والديمقراطية هي الشورى، إذًا فالإسلام ديمقراطي، بمثل هذه القياسات والمغالطات تكونت عقليات عامة الناس بما فيها التكتلات القائمة؛ لأن تفكيرها مستمَدٌّ من هذا الواقع السيئ، ولذلك ما على الإنسان إلا أن يكيّف نفسه للعيش بهذا الواقع، ولذلك يجعل منافعه تدور مع هذا الواقع؛ لأن هذا هو ما عليه واقع المجتمع والحالة التي وصل إليها، وكونه فرد أو تكتل يعيش في هذا المجتمع ولم يستطع

أن يسمو فوق ما عليه المجتمع لأنه لا يملك مقومات السمو عن الواقع، وهذا يختلف تمامًا عن الحلقة الأولى -القيادة-؛ لأنها تستند بفكرها إلى قاعدة ثابتة وهي أن الفكر لا بد أن يتصل بالعمل، وأن الفكر والعمل لا بد أن يكونا من أجل غاية معينة يهدفان إليها، وأن هذا كله لا بد وأن يكون في جو إيماني، هذه هي **القاعدة العملية الثابتة**: فكر، يتبعه عمل، من أجل غاية، في جو إيماني.

أما تفصيل ذلك فهو أن فكر هذه القيادة فكر عملي؛ أي: هو فكر يُراد به معالجة واقع معين، والتعامل به لا لمجرد بيان حقيقته وصدقه، بل للعمل به، فهو ليس فكرا فلسفيا للبحث عن حقيقة معينة، أو للبحث في ما وراء الطبيعة، أو فكر في نظريات أو افتراضات يراد بيان صحتها أو بطلانها، ولأنه فكر فقهي لاستنباط أحكام وبيان مسائل، سواء أخذ بها الناس أم لم يأخذوا، مع أن الفكر الفقهي هو بحث في أفكار عملية من حيث إنه بحث في الأحكام الشرعية، والأحكام الشرعية أحكام عملية، إلا أن الفرق هو أن الفقيه يهمه استنباط الحكم الشرعي من الأدلة التفصيلية، سواء قلّده غيره أو التزمه بنفسه، وهذا خلاف ما قلنا عن هذا الفكر الذي هو مناط البحث، فهذا الفكر لا بد أن يكون مقترنًا بالعمل، كي لا يعيش الفرد في خيال أو وهم أو على آماله وتمنياته، كالفلاسفة أو المتكلمين أو علماء الرياضيات والفيزياء أو الفقهاء والمجتهدين، لا ليس كذلك، بل أفكار عملية فُهمت ليُعمل بها في هذا الواقع لتغييره.

واقتران الفكر بالعمل دون غاية محددة أو هدف معين، دوران في حلقة مفرغة، يدور حامله حول نفسه، ومثل هذا شخص آمن بفكرة ما ورأى فيها كل الخير فطفق يعمل بها ويدعو لها دون أن يحدد له هدفًا أو يعين له غايةً، فهو يعمل ويعمل ولكنه يدور على نفسه في مكانه، مثله مثل المخلصين من وعّاظ المساجد وخطبائها، والكتّاب الذين يبذلون الجهود المضنِيَة في البحث والتنقيب والاستنباط ومن ثم التأليف والكتابة، آملين بغيرهم أن يسير على هذا النهج، أو أن يؤدي انتشار هذه الأفكار تدريجيًا إلى التغيير، ولهذا كان لا بد من وضع الأساس الثالث لهذه القاعدة وهو الهدف من العمل، وليس المقصود هنا من الهدف أيَّ هدفٍ كان، كأن تقول: نوال الثواب، أو الوصول إلى رضوان الله، فذلك غاية الغايات. بل المقصود هو النتيجة المرجوة من القيام بالعمل، وتقصّد الوصول إلى الهدف المعين، بالإضافة إلى رضوان الله؛ لأن المقصود من العمل هو تغيير الواقع الفاسد الموجود في المجتمع وإيجاد واقع حسن.

الأساس الثالث: هو الهدف، إن تحديد الهدف ووضع الغاية المعينة هو كسر لتلك الحلقة المفرغة وجعل خط السير مستقيمًا حتى يصل إلى نقطة معينة هي الهدف المرسوم، ورسم الهدف يعين تجسيد هذا الهدف في نفس حامل هذه الفكرة، والذي دفعه إيمانه بها إلى العمل لها، فبدلًا من أن يكون عمله دورانًا حول نفسه دون غاية، صار عمله على خط مستقيم يؤدي بالنتيجة إلى تحقيق

غايته، وبمقدار وضوح هذا الهدف وبلورته في نفس الشخص بقدر ما يكون اندفاعه نحو غايته وأمله في تحقيقها، خصوصًا حين يكون الهدف قد حددته الفكرة نفسها، وبيّنته بكلياته وجزئياته وبينت الطريق المؤدي لتحقيقه، ولا يكفي أن يكون الهدف فكرةً عامة غير محددة، بل لا بد أن يكون واضحًا وضوح الفكرة نفسها؛ لأنه هو الغاية من العمل، فحين يقول أنه يعمل لتغيير المجتمع على أساس هذه الأفكار، لا بد وأن يكون متصورًا للمجتمع الآخر الذي يريد أن ينتقل إليه، فلا ينخدع بمظاهر سطحية، أو أفكار جزئية، أو بتطبيق بعض الأفكار والأحكام متوهمًا أنه بذلك وصل إلى هدفه، أو هي خطوة أولى في سبيل الوصول إلى هدفه، وكون هذه الفكرة قد انبثقت عن قاعدة أساسية، وأن العمل لها قد انبثق أيضا من نفس القاعدة الأساسية، والهدف كذلك بيَّنَتْه وفسَّرَته الأحكامُ المنبثقة عن القاعدة نفسها، وهي القاعدة التي آمن بها واحتلت مركز إيمانه، وآمن بأنه إنما يعيش من أجلها، من أجل ذلك، صار الجو الايماني هو الدافع للعمل.

وهذا هو **الأساس الرابع** لهذه القاعدة العملية الثابتة، وأعني به: الجو الإيماني (فالجو الإيماني هو الإدراك الكامل؛ لأن ما يقوم به من أعمال وما آمن به من أفكار وما حدده من أهداف إنما هي أحكام عملية تحتمها عليه قاعدته الإيمانية)، ومعنى ذلك أن هذا الإنسان وهو يصطدم بهذا الواقع الفاسد وما فيه من صعوبات، وما يجابهه من مشاقّ، وما يلاقيه من محن قد تفتر عزيمته

وتفتر همّته ويتسرب إلى نفسه اليأس أو الاستيئاس، ويعود لمراجعة فكرته والأمر الدافع له للعمل، فحين يجد أن هذا الأمر منبثق من عقيدته بدليل، وحين يجد أن الله لا يضيع عمل عامل، وأن الجزاء الموعود به أكبر بكثير من الثمن المدفوع، وحين يدرك يقينًا أن مردّه إلى الله تعالى ، وإيمانه به هو الركن الأساسي من تلك القاعدة، فإنه بمراجعته تلك لخط سيره، وإدراكه أنه يقتفي خطوات رسول الله ﷺ فإنه بمثل هذه المراجعة وعيشه في هذا الجو الايماني يجد باعثًا قويًا على العمل، وطاقةً لا حدود لها، وبهذا الجو الإيماني يستطيع أن يُخضع الواقع ويغيّره؛ لأن مثل هذا الفكر المقترن بالعمل من أجل هدف معين وفي هذا الجو الإيماني لا يتغير، ولا يتأثر بما يلاقيه أو يمرّ به، بل على العكس، إنه فكر ثابت؛ لأنه من قاعدة ثابتة، ويغير ما يمر به، ويتأثر به الآخرون؛ لأنه فكر عملي يعالج وقائع عملية ومنبثق من قاعدة ايمانية ثابتة وهي العقيدة، وذلك بخلاف المجتمع المنحط؛ لأنه لا توجد لأفكاره قاعدة، وأعماله ناشئة عن ردّات فعل أو تقليد لغيره من المجتمعات، وهو بمجموعه لا يعرف الغاية التي يفكر ويعمل من أجلها، وتكون الغايات عند أفراده فردية آنية أنانية. ومثل هذا التفكير بلا قاعدة ثابتة "عقيدة" تكون أساسًا لأفكاره وميوله وأهدافه، مثل هذا التفكير لا يوجد له جوًا ايمانيًا، ولا يؤثر في غيره، بل هو عرضة للتأثر بغيره، ويجد نفسه مضطرًا أن يتشكل بالجو المحيط به، ومن هذا يأتي التضارب بين الحلقة الأولى وبين المجتمع الذي تعيش فيه أول الأمر.

إن من أوجب الواجبات على هذه الحلقة الأولى أن توجِد الجو الإيماني؛ لأنه يفرض طريقة معينة في التفكير؛ أي: أنه يجعل التفكير دائمًا إما مبنيًا على القاعدة الفكرية -العقيدة- أو منبثقًا عنها، ومن أجل تحقيق ذلك فإن عليها أن تقوم بأعمال وحركات مقصودة حتى تسارع في بناء نفسها، وتنمية جسمها ، وتنقية أجوائها، بإبعاد أي محاولة قياس على غير تلك القاعدة الفكرية، حتى يتسنى لها أن تنتقل من حلقة حزبية إلى كتلة حزبية ثم إلى حزب متكامل يفرض نفسه على المجتمع، بحيث يكون فاعلًا في المجتمع لا منفعلًا به، فالتقيد بالقاعدة الفكرية وجعلها مقياسًا لكل فكر ومنبثقًا لكل حكم يؤدي إلى رفض ما تركز في المجتمع من مفاهيم مغلوطة وعقائد فاسدة وعادات سيئة، فالضابط من الانفعال بالمجتمع هو اتخاذ هذه القاعدة -العقيدة- وجَعْل ما انبثق عنها من مفاهيم وما بُنِي عليها من أفكار؛ جوًا إيمانيًا هو العنصر الفعال المؤثر في المجتمع.

هذه الحركات المقصودة نعني بها الدراسة الواعية لأمور هي:

الدراسة الواعية للمجتمع: وذلك لمعرفة العرف العام المهيمن على أجوائه، والرأي العام فيه حول قضاياه، والأشخاص الفاعلين فيه، ومعرفة الوسائل والأساليب التي تؤثر في أعرافه وعاداته وتقاليده، وهل ما زال فيه بعض النقاء والاخلاص، أم أن عنصر النفاق أصبح من الأفكار المركزة فيه، أو أن عنصر اللامبالاة هو المهيمن على نفسيات الناس فيه، وما هو موقف المجتمع من

أنظمة الكفر المطبقة عليه، ومدى حرصه على مفاهيم الإسلام وآرائه وتأثره بها، وما هو موقفه من حكامه وأعوانهم.

دراسة واعية للأشخاص: ونعني بالأشخاص ذوي الفعاليات بشكل أساسي، وهل زعامتهم حقيقية أم أنهم زعماء بقضاء المصالح وتحقيق المنافع، أم أنهم مفروضون فرضًا على الناس، ومعرفة الفئة المثقفة ومدى إخلاصها لثقافتها الأجنبية وفهمها لها، ومعرفة المتعلمين من أبناء المسلمين، ما مدى اهتمامهم بالإسلام ووعيهم عليه، وإيمانهم بأحكامه وآرائه.

الدراسة الواعية للأجواء لمعرفة المقاييس والأسس التي يرجع إليها الناس في تفكيرهم، والقواعد التي يرجعون إليها في مفاهيمهم وآرائهم، وهل تتقدم مصالح المجتمع على مصالحهم، وهل ما زالت ثقتهم بالأجنبي تهيمن على نفسياتهم، وهل ما زالت شخصية الكافر هي المثل الأعلى في نفوسهم.

الرقابة الحذرة لجسم الحزب من أن:

- يتسلل إلى جسم الحزب عنصر فاسد يعمل على الوصول إلى مركز القرار أو العمل على انشطار الحزب على نفسه، أو التشكيك بإمكانية الوصول إلى الهدف وتحقيق الغاية، أو أن يميل أو يحاول إمالة الحزب عن الصراط السويّ الذي يسير عليه والطريقة التي تبنّاها.
- يحصل خطأ في تركيب جهاز من أجهزة الحزب التي يكون التكتل بحسبها، كأن تقوم إحدى لجانه بغير الصلاحية المعطاة لها، أو أن تتخذ

لجنة من لجانه قرارًا بمعزل عن القيادة؛ أي: أن تخرج عن مركزية القرار وقيادته.

الأمر الجامع بين أفراد الكتلة؛ أي: الطريقة الحزبية، يجب أن تكون العقيدة الراسخة الثابتة والثقافة الحزبية الناضجة هي الرابط بين أعضاء الحزب، وأن تكون هي القانون الذي يسير الجماعة لا القانون الإداري المسطر على الورق، ولما كان الأمر الجامع بين أفراد الحزب هو العقيدة والثقافة فلا بد إذن من العمل على تقويتها وذلك بالدراسة والفكر، حتى يتكون من هذه الدراسة والفكر طريقة منتجة في التفكير، وتفهم الأمور والوقائع والأحداث بشكل معين وكيفية معينة، وذلك بتثبيت قواعد ومقاييس يُرجع اليها حين الحكم على الأشياء والوقائع، وبذلك نستطيع أن نربط بين الفكر والشعور، وبجعل العقيدة اليقينية الثابتة هي المقياس الأساسي لجميع الأفكار والمفاهيم نكون قد حافظنا على الجو الإيماني مهيمنًا على الحزب، وأبرز ما يلحظ هذا لدى الشباب في السؤال عن الدليل في كل مسألة، وهذا ما نعني بهيمنة الجو الإيماني على الحزب؛ لأنه ربطٌ بالعقيدة في جزئيات الأحداث والوقائع، وبهذا يكون الجامع بين الأعضاء القلب والعقل، فالإيمان بالمبدأ وجعله مركز التنبه يجعل القلب جامعًا بين الشباب، ودراسة المبدأ دراسة دقيقة وحفظ ما انبثق عنه من أفكار وأحكام واستظهار المقاييس والأسس التي جاء بها المبدأ يجعل العقل هو الجامع الثاني للشباب بتكوين عقلية معينة عند الجميع؛ أي: يوجد عند الجميع

طريقة واحدة معينة في التفكير، وبذلك يكون الحزب قد أعدّ إعدادًا صحيحًا، وتكون رابطته متينة متانة تمكنه من الثبات أمام جميع الزعازع والعقبات.

تشبه قيادة الحزب "الحلقة الأولى" الموتور الصناعي من جهة، وتخالفه من جهة أخرى، ووجه الشبه فيها هو أن الموتور الصناعي للغاز مثلًا له طاقة حرارة تتولد من الشعلة والبنـزين في الحركة الموتورية، وهذه الطاقة الحرارية تنتج ضغطًا في الهواء، وهذا الضغط يدفع الذراع، وهو المحرك الذي يفرض حركته على القطع الأخرى فتدور الآلة، وعليه فإن وجود الشعلة والبنـزين والحركة الموتورية هو الأصل؛ لأنه بتوليده للحرارة ينتج ضغطًا، وهذا الضغط يفرض حركته على باقي القطع ويدير الموتور، فإذا وقفت حركة الموتور وقفت جميع القطع، إذًا لا بد من وجود الشعلة والبنـزين والحركة الموتورية حتى يدور الموتور ويدير جميع الآلة. وكذلك قيادة الحزب فإن الفكرة فيها بمقام الشعلة، والإحساس المتولد في الأشخاص الواعين في القيادة بمنزلة البنزين، والإنسان الذي يتأثر إحساسه بالفكرة هو الحركة الموتورية، وعليه فإن الفكرة حين تتصل بالإحساس في الإنسان توجد طاقة الحرارة فتدفع القيادة إلى الحركة، وحركتها هذه تفرض على سائر قطع الحزب من أفراد وحلقات ولجان محلية وغير ذلك، فتتأثر بحرارتها، فتتحرك وتدور جميعها دوران الآلة، وهنا يبدأ سير الحزب بالحركة: فيأخذ دور النمو في تشكيله.

وعليه؛ فإنه لا بد من انبعاث طاقة الحرارة من القيادة لسائر أجزاء الحزب حتى تتحرك أجزاؤه جميعها تمامًا كحركة الموتور، وهذا هو وجه الشبه بين الحزب والموتور الصناعي.

وأهمية هذا التشبيه أن يلاحظ قادة الحزب هذه الناحية لمراقبة حركة بقية الاجزاء، فإذا أحسّ هؤلاء القادة أن بقية الأجزاء أو بعضها لم يتحرك فإن عليهم زيادة اتصالاتهم؛ لأن الآلة لا تدور إلا إذا دار الموتور وبعث الحرارة منه.

إلا أن القيادة لا يكون تحريكها مؤثرًا بفرض الحركة على الحزب كالموتور الصناعي، بل يكون تحريكها كذلك أول الأمر فحسب، أما بعد سير الحزب فلا يكون كذلك؛ لأن المفروض في كل عضو من أعضاء الحزب أن يكون هو نفسه موتورًا، فالشعلة والبنزين والحركة الموتورية يجب أن تتوفر في كل فرد، فالفكرة في كل منهم بمثابة الشعلة الموجودة فيه، وإحساسه بوجوب العمل بمثابة البنزين، والتأثر الحاصل بين الفكرة والإحساس هو الحركة الموتورية، وعلى هذا فإن التشبيه ينطبق في البداية أو حين يلحظ تقصير أو نفور فالمفروض أن تنبعث الحرارة من القيادة للتحريك.

هذا بالإضافة إلى أن القيادة هي موتور اجتماعي، وأعضاء الحزب بلجانه وحلقاته هم من بني البشر، ويتأثرون جميعا بحرارة المبدأ المتجسد في القيادة، فيصبحون جزءا من الموتور. فمجرد الحركة في الموتور تحرك كافة الأجزاء

طبيعيا؛ لأنها بصفتها موتورًا اجتماعيًا تكون كلا فكريا شائعا في جميع الحزب؛ أي: أن كل شابٍ في الحزب آمنَ بنفس المبدأ وتجسَّدَتْ فيه نفس الفكرة وارتبط بغيره بعقله وقلبه، فصار الحزب كله كالجسم الواحد؛ أي: كلًّا فكريًا يفكر بطريقة واحدة، وفي هذه الحالة لا تكون القيادة وحدها هي التي تحمل الحركة الموتورية. بل بنموها وتكامل تشكيل الحزب؛ أي: بتكاثر الخلايا والحلقات، وتنظيم الأجهزة واللجان، وتحديد المسؤوليات والواجبات يكون الحزب كله حاملا للحركة الموتورية. وعلى هذا لا يحتاج سير الحزب إلى حركة القيادة ولا إلى بعْثِ حرارتها، بل يسير الحزب بوصفه كلًّا فكريًا؛ لأن المبدأ قد تجسد في جميع شبابه، وتسير الحلقات واللجان سيرًا آليًا، دون حاجة إلى حرارة القيادة؛ لأن حرارة كل جزء منبثقة منه، ومن الكل الفكري الشائع في الحزب، والمتصل بهذه الأجزاء اتصالا طبيعيا.

يسير الحزب في ثلاث مراحل ، حتى يبدأ تطبيق مبدئه في مجتمعه:

أولا: مرحلة الدراسة والتعلم لإيجاد الثقافة الحزبية؛ أي: إيجاد وإعداد مجموعة من الشباب المستعد للتضحية.

ثانيا: مرحلة التفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه، حتى يصبح المبدأ عرفا عاما ناتجا عن وعي، وتعتبره الجماعة كلها مبدأها حتى تدافع عنه جماعيا، وفي هذه المرحلة يبدأ الكفاح بين الأمة وبين من يقوم حائلا دون تطبيق المبدأ من الاستعمار أو من يضعهم من الحكام والظلاميين والمضبوعين بالثقافة الأجنبية،

لأنها تعتبر المبدأ مبدأها، والحزب قائدًا لها؛ أي: إيجاد أمة تثق بالمبدأ وبقيادة الحزب.

ثالثا: مرحلة تسلُّم زمام الحكم عن طريق الأمة تسلُّمًا كاملًا، حتى يتخذ الحكم طريقة لتطبيق المبدأ على الأمة، ومن هذه المرحلة تبدأ الناحية العملية في الحزب في معترك الحياة، وتظل ناحية الدعوة للمبدأ العمل الأصلي للدولة والحزب؛ لأن المبدأ هو الرسالة التي تحملها الأمة والدولة.

- **أما المرحلة الأولى** فهي المرحلة التأسيسية، وهي تتلخص في اعتبار جميع أفراد الأمة سَواءً في أنهم خالون من كل ثقافة، والبدء بتثقيف مَن يريدون أن يكونوا أعضاءً في الحزب بثقافته، و اعتبار المجتمع كله مدرسة للحزب حتى يخرّج الحزب في أقصر مدة الفئةَ التي تكون قادرة على الاتصال بالجماعة للتفاعل معها، فعلى الرغم من أن من يقبل أن يكون عضوًا في الحزب لا بد له من الإيمان بالمبدأ وبعقيدة المبدأ والالتزام بأحكام هذه العقيدة والسير بحسبها، إلا أننا أشرنا إلى أن الرابطة بين أعضاء هذا الحزب بالإضافة إلى العقيدة هي الثقافة التي أعدها الحزب؛ لأن المسألة هي إيجاد كل فكري.

وإيجاد الكل الفكري إنما يعني توحيد طريقة التفكير، وتوحيد الآراء والأحكام والنظرة إلى الوقائع والأحداث، وهذا لا يتأتى إلا بتوحيد الثقافة وفهم الأسس التي يتم قياس المفاهيم عليها، ولهذا لا بد من اعتبار أي عضو

-يقبل أن يكون عضوًا- خاليًا من أية ثقافة؛ فيُصار إلى تثقيفه بهذه الثقافة الحزبية، حتى يتم تأهيله للاتصال بالجماعة وإعداده للقيام بأعباء هذه الدعوة، وتجسيد المبدأ فيه ليصبح فعلًا جزءًا من هذا الكل الفكري، بالإضافة إلى اعتبار المجتمع كله مدرسة للحزب، دون أي اعتبار لما في المجتمع من فئات أو تقسيمات أو طبقات، فلا فرق بين متعلم وأمي إلا بمقدار ما يستوعب من هذه الثقافة ويخلص لها، وبمقدار استعداده للتضحية والقيام بالأعباء.

ويجب أن يكون واضحًا أن هذا التثقيف ليس تعليمًا، فهناك فرق كبير بين الثقافة والتعليم أعني اكتساب المعارف والمعلومات، ولو أن كلاهما اكتساب معارف وتنمية معلومات، وأن هناك فرقًا بين الثقافة والعلم، وهذا الفرق بين الثقافة والعلم آتٍ من ناحية تحصيلها، فالثقافة نحصل عليها بالتلقين والإخبار ثم الملاحظة والاستنباط، بينما نحصل على العلم من وضع المادة في ظروف غير ظروفها و إجراء التجارب عليها ثم الاستنتاج، وفي هذا بحث مفصل في غير هذا الموضع، بينما في هذه العبارة فإن المقصود بالتفريق بين التثقيف والتعليم أن المعلومات المكتسبة في التعليم معلومات ومعارف مدرسية قد يحتاجها الإنسان في حياته وقد لا يحتاجها أبدًا، فالتعليم يقصد به اكتساب معارف ومعلومات أو تنمية ما عنده من معارف ومعلومات، بينما التثقيف يقصد به تنمية معارف ومعلومات تبنى شخصية الفرد على أساسها، وتكون مقوّمة لسلوكه، فالثقافة هي الحصول على معلومات ومعارف يحتاجها

الفرد في الحياة ويسير بموجبها، هذا ما نعنيه بكلمتي تثقيف وتعليم في هذه الفقرة، وهذا ما يبين الفرق بين عملية التثقيف هذه وبين التعليم في المدرسة، ولهذا لا بد أن تكون الثقافة في الحلقات سائرة على اعتبار أن المبدأ هو المعلم، وأن المعارف التي تعطى في هذه الحلقات يقتصر فيها على المبدأ، وعلى ما يلزم لخوض معترك الحياة.

أما ما يقتصر فيه على المبدأ فهو العقائد والمعالجات وحمل الدعوة وبيان كيفية تنفيذ هذه المعالجات ومعرفة الواقع الذي يراد نقل المجتمع إليه، ومعرفة المجتمع الذي هو فيه، ومعرفة ما يقتضيه فهم المبدأ من قواعد وأحكام ولغة وغير ذلك، وما هو من هذا القبيل، وأما ما يلزم لخوض معترك الحياة فالمقصود به فهم ما في المجتمع من عقائد وأفكار وعادات باطلة سيخوض معها مرحلة صراع عنيفة، فلا بد من الإحاطة بها لمعرفة الرد عليها كالشيوعية والديمقراطية والوطنية وغيرها، مما هو من هذا الباب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تؤخذ هذه المعارف والمعلومات للعمل بها حالا في معترك الحياة، وحين نقول للعمل بها في معترك الحياة فإننا لا نعني بها الاقتصار على تسيير سلوكه الشخصي بموجبها بل المراد حملها للناس، وخوض الصراع الفكري مع خصومها، أو نشر أفكار المبدأ وآرائه ومعتقداته.

ولهذا لا بد أن تكون الثقافة عملية، سواء من حيث سلوك الفرد، أو من حيث حملها ونشرها للناس وخوض الصراع الفكري بها، ولا بد أن تستبعد الناحية

المدرسية العلمية، فلا هو امتحان ولا سؤال وإجابة ، ولا هو مسألة حفظ واستظهار، بل مسألة فهم وعمل، مسألة تثقيف وتفاعل وتجسيد للمبدأ في الدارس.

الحزب هو تكتل يقوم على فكرة وطريقة؛ أي: على مبدأ آمن أفراده به، وهنا نذكر أن الفكرة هي العقيدة العقلية التي انبثق عنها نظام بما حوى من معالجات لمشاكل الإنسان في الحياة، وحمل للدعوة إلى الناس، وأما الطريقة فهي كيفية المحافظة على هذه العقيدة وكيفية تنفيذ المعالجات وكيفية حمل الدعوة إلى العالم، بالإضافة إلى كيفية إيصال هذا المبدأ بفكرته وطريقته للحياة؛ أي: الطريقة التي يسلكها هذا التكتل في عملية الوصول إلى غايته متبعًا طريقة الرسول ﷺ في المرحلة المكية.

وفي هذه المرحلة لا بد له من الإشراف على فكر المجتمع وحِسِّه ليسيرهما بحركة تصاعدية، وعملية الإشراف هذه لا تعني مراقبة ما في المجتمع من أفكار فحسب، بل إنزال أفكاره على الوقائع الجارية وإيجاد الوعي عليها ومراقبة تقبل الناس لها وتأثرهم بها، ثم إن عملية إشرافه هذه إنما تعني الحول دون الانتكاس في الفكر والحس، كما حدث في ١٩٦٧م حين اندفع الناس بأفكارهم ومشاعرهم وراء المنظمات الفلسطينية والأعمال العسكرية، ولم يستطع الحزب في حينه أن يحول بين الناس وبين تلك الانتكاسة، ولهذا لا بد له من هذا الإشراف؛ لأنه مدرسة الأمة التي تثقفها وتخرجها وتدفعها إلى معترك

الحياة العالمية، وهو المدرسة الحقيقية، ولا تغني عنه المدارس مهما تعددت وكثرت وشملت، إلا أن هناك فرقا بين الحزب وبين المدرسة لا بد من إدراكه، وهذا الفرق واضح في عدة نقاط منها:

أ- من المعروف أن للمدرسة برنامجًا معينًا تسير ضمن هذا البرنامج بشكل رتيب، ولا تخرج عنه، ولو أرادت أن تخرج عن هذا البرنامج فإنها تحتاج إلى فترة زمنية معينة، ولذلك فهي لا تسير بحسب وقائع الحياة الجارية التي تتغير وتتبدل باستمرار، فالثقافة التي تعطيها المدرسة والمواضيع التي تدرسها لا ترتبط بالوقائع والأحداث الجارية، وحتى لو حرصت على ذلك فسيكون ارتباطها متعلقًا بفترة زمنية معينة، و بهذا تكون المعارف والمعلومات المعطاة من المدرسة مجردة من واقعها، فلا يكون لها التأثير الجماعي؛ لأنها معلومات لا تلامس أحاسيس الناس ومشاعرهم، ولهذا فإن المدرسة ليست معدّة لإنهاض الأمة، وإنما وضعت لتعليم الناس وتنمية معارفهم، بينما الحزب وُجد أساسا لإيجاد النهضة في الأمة، وحين يطرح أفكاره وآراءه أو يثقف شبابه بثقافته المركزة، أو يثقف الأمة بالثقافة الجماعية، إنما يثقفها بأفكار منزلة على الوقائع الجارية والأحداث ويخاطب مشاعر الأمة وأحاسيسها المتأثرة بما يدور في المجتمع من أمور، أو ما تعانيه الأمة من صعوبات، فإنزال الأفكار على وقائعها هو الذي يحدث الأثر ويدفع الأمة دفعًا إلى التفكير بطريقة معينة مما

يوجد النهضة فيها، والمدرسة ليست قادرة على ذلك مهما كان نوعها أو اختصاصها أو إمكانياتها.

ب- أن برنامج الحزب الصحيح يقوم على ما يلي:

الحيوية: فإنه ينمو ولا قيد على نموه ولا توقف.

التطور: فهو ينتقل من حال إلى حال، إذ ينتقل من التثقيف وإعداد الشباب للصراع والتصدي للأفكار الأخرى، والكفاح السياسي ومجابهة الحكام، ثم إلى تنفيذ ما يؤمن به حين يتمكن من ذلك.

الحركة: من حيث إنه ينتقل في كل ناحية من نواحي المجتمع، في العقائد، في الأفكار، في الآراء، في السياسة، في الحكم، في الاقتصاد، في الاجتماع، في القضاء، في العقوبات، في كل نظام من أنظمة الحياة، بالإضافة إلى تنقله في كل جزء من أجزاء البلاد، في المدينة وفي القرية وفي مضارب البدو، في المدرسة والمصنع والمعمل وغير ذلك.

الحس: إن الحزب بمجموعة شبابه كائن حي يحس بكل ما يجري في المجتمع، ويشعر بكل ما يحصل، ويحاول التأثير فيه، بما لديه من أفكار أو معالجات.

وذلك لأنه أعد لهذه الغاية وبهذه الكيفية؛ أي: أنه يتشكل بحسب الحياة والمشاعر، وهو في تطور دائم ويعد لكل حال يسوسها، وفي تغير مستمر، ففي الوقت الذي يناقش مسألة حكم، يناقش مسألة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية حسب مقتضى الحال، ولا يسير على طريقة رتيبة، فالأصل فيه الإبداع

في الأساليب، والتطوير في الوسائل، فالوسيلة عنده يحتمها العصر، والأسلوب يحتمه واقع العمل، فهو يسير مع الحياة وأشكالها، إلا أنه يحاول دائمًا أن يشكل الجو الإيماني؛ أي: أن يجعل لتفكير الأمة قاعدة تنطلق منها؛ أي: عقيدتها، كما يحاول تغيير الواقع وتكييفه حسب المبدأ.

ت- أن المدرسة حتى ولو كانت مدرسة دينية فإنها تقوم على تهذيب الفرد وتعليمه باعتباره فردًا معينًا، وهي وبالرغم من كونها جماعة صغيرة إلا أنها فردية من ناحية تعليمية، فالعبرة بما تقوم عليه، لا من حيث كونها هي، فمهمتها وما تقوم عليه هو تهذيب الفرد وتعليمه، ولذلك فان نتائجها فردية حتمًا، وأحب أن أذكر بمقومات الفرد -وهي العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة- التي حتى لو بنتها تلك المدرسة، فحرصت على صفاء العقيدة، وبنتها على العقل، وجعلتها يقينية في الفرد، وبينت له أحكام العبادات بأدلتها وألزمته بها، وشجعته على القيام بالمندوبات إضافة إلى الفروض، وحاولت معه أن يتصف بالصفات الحسنة وكل خلق حميد، وجعلته في معاملاته يسأل دائمًا عن الحلال والحرام، فما كان حلالًا قبله وما كان حرامًا ابتعد عنه، فإنها كمدرسة بمنهاجها يكون همّ الطالب فيها تحقيق النجاح، فقد يستظهر كل النصوص المعطاة له ولكنه ينساها بمجرد تخطيه عتبة المدرسة.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية؛ أي: في مرحلة التزامه بما درس فإن ذلك لا يتعداه كفرد، ولا علاقة له بفكر الجماعة أو مشاعرها، فهو لا يعرف شيئا عن

أنظمة المجتمع والعلاقات العامة فيه، وليست موضع اهتمامه ليعرف ذلك، فلو افترضنا أن غالبية المجتمع قد وصلت إلى هذا الحد من الالتزام؛ فإن المجتمع يبقى على فساده ما دامت نظمه وعلاقاته قائمة على غير الأساس الذي يعرفه، وسواءٌ عنده أَحَكَمَه مخلصٌ أو خائنٌ، مؤمنٌ أو كافرٌ، وحتى لو أُتيح له أن يحكُم فإنه لا يعرف من ذلك شيئًا؛ لأن ذلك ليس من ضمن اختصاصه كفرد، فالعلاقات العامة، وتنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، ورعاية الشؤون، واستخراج الثروات الطبيعية للناس، وحماية الثغور، وتجهيز الجيش لحمل الدعوة، كل هذا ليس من ضمن اختصاصه، ولذلك تبقى النتائج فرديةً مهما كثر عدد الذين تهذبوا وتعلموا حسب المنهج المدرسي.

ث- أن القيام على تربية الجماعة يختلف تماما عن القيام على تربية الفرد. فحين القيام على تربية الجماعة وتثقيفها فإنما ينظر إليها بوصفها جماعة واحدة، بغض النظر عن أفرادها، وحين نقول بوصفها جماعة فإنما نعني أن ينظر إلى الأمر الذي جعلها جماعة واحدة؛ أي: ينظر للعلاقات الدائمة التي تقوم عليها الجماعة، وهذه العلاقات إنما تقوم على أفكار عامة وينتَظِمها نظام معين، ولذلك فإنه يثقف الجماعة كي تغير كيفية تنظيمها لعلاقاتها الداخلية منها والخارجية، وتغير النظام الذي ينتظم علاقاتها بناءًا على قاعدة معينة، مما يوجد عند الأمة -الجماعة- قاعدة تنطلق منها في تفكيرها لتغيير أفكارها ونظمها،

وتكوّن على ذلك عرفًا عامًا يكون له الفعالية المؤثرة في تنظيم العلاقات، ولهذا تكون النتائج التي نحصل عليها نتائج جماعية، وحين يثقف فردا أو أفرادا إنما يثقفهم ليصبحوا صالحين لجزئية الجماعة، لا لفرديتهم، كما حصل عند تثقيف الفرد لفرديته، وهذا ما لا يتحقق مطلقا في المدرسة مهما بذلت من جهد أو أمضَتْ من زمن أو خرجتْ من تلاميذ.

وقد أثبت الواقع القائم حاليًا في أي قُطر من أقطار العالم الإسلامي صحة ذلك؛ حيث إن حمَلَة الشهادات العالية وفي كافة الحقول قد بلغ الآلاف بل الملايين، وفاقت نسبتهم فيه نسبتهم في أي بلد في العالم، ومع ذلك لم يؤثروا في نهضة الأمة، بل لم يستطيعوا وقف انحدارها، حتى المدارس والمعاهد والجامعات القائمة على أساس الإسلام، وتدرس الإسلام وتخرج العلماء والفقهاء بالآلاف كالأزهر وكليات الشريعة والنجف بجامعاتها وفروعها، لم تؤد إلى النهضة وإلى السير في طريق النهوض، ولم توقف انحدار المجتمع.

تقوم المدرسة على تهيئة الفرد ليؤثر في الجماعة التي يعيش فيها -حسب تقديرهم- ومع افتراض صحة ذلك فإنه لا يستطيع أن يؤثر إلا جزئيا؛ لأنه يحتل جزءا شعوريا ضعيف الأثر في إيقاظ الفكر، فما دام أن الفرد قد تلقى ما يصلح حاله كفرد؛ أي: اقتصر تفكيره وتثقيفه وتربيته على ما هو من مقومات الفرد، فإن ما يعتريه من شعور وما يحس به بشكل عام هو هذا الجانب من حياة الجماعة، وهو جانب شعوري فقط؛ أي: منبثق عن إحساسه بأنه فرد في

هذه الجماعة، وليس راعيًا وقائدًا يتمنى لها الخير والسعادة، أما ما يوقظ الفكر فهو الإحساس الصحيح بما تعانيه الجماعة، وما تقاسيه من سوء نتيجة تطبيق النظم الفاسدة عليها، مما أفسد العلاقات القائمة بين أجزائها، وأفسد العلاقات بينها وبين غيرها من الجماعات، ويكاد يفسد أفرادها، فتركيز مفهوم الفردية عند الفرد، وتصوره أن المجتمع مكون من أفراد يجعل أحاسيسه تنصب على هذا الجانب، فيتألم حين يقلّ عدد المصلين، أو يرى ما يراه من فساد خلقي أو من انتشار الموبقات والمحرمات، ومثل هذا الإحساس لا يخرج عن دائرة الشعور ولا يمثل إلا جزءًا يسيرًا من حياة الجماعة.

الأصل هو تهيئة الجماعة لتؤثر في الفرد، وبالتأكيد فهي القادرة على التأثير، وكلنا نلاحظ أن هيمنة عرف عام أو حتى عادات أو تقاليد على سلوك الجماعة تجعل الفرد يجد نفسه وهو يعيش في هذه الجماعة مجبرًا على السير والسلوك حسب هذه الأعراف أو العادات والتقاليد، فضغط العرف العام له قوة أكبر من قوة القانون، فترى الفسَقة الذين يعيشون في قرى محافظة أو أحياء منها يبتعدون بفسقهم عن أجواء الجماعة وأعرافها ويذهبون إلى أحياء أخرى تتقبل مثل هذه الأعمال خوفًا من تلك الأعراف، مع أن القانون والنظام المطبق يحميهم من الناس، وحين ندرك أن العرف العام هو عبارة عن مشاعر تتولد نتيجة لأفكار أخذت دور العراقة والتركيز في النفوس، حين ندرك ذلك نقول أن هذا الشعور القوي قادر على التأثير الكلي على الأفراد جميعًا، وقادر على

إيقاظ الفكر؛ أي: دفع الناس لأن يبحثوا المسائل بحثًا فكريًا، ويتوصلوا ببحوثهم تلك إلى نتائج منطقية تكون بداية لنهضة فكرية سريعة وبأقل جهد ممكن؛ لأن الشعور القوي هو الذي يوقظ الفكر.

وما الثورات الشعبية، والانتفاضات، وحتى المظاهرات، إلا دفعٌ شعوري عام، حرَّكَتْه في الناس فئة تعرف كيف تثير الشعور العام عند الجماعة، فاندفع الناس مقودين بهذا الشعور العام، وقد يندفع فيها من لم يكن يشعر أو يحس بما أثير في الجماعة من مشاعر، مثل ما يسمى بالانتفاضة في الضفة الغربية، فقد عرفت الفئة أو الفئات المحركة كيف تثير المشاعر العامة، فتوقظ هذا الإحساس، مع أن عيشهم عند اليهود وتعسف اليهود وظلمهم ليس جديدًا، وقد احتلت هذه المشاعر كافة الأفراد فانساقوا وراءها، ومثل هذا الشعور يوقظ الفكر، فيؤدي إلى التفكير في الأسباب والمسببات والنتائج والأهداف، مما يوجد عمليات فكرية تؤدي إلى السير في طريق النهضة لو سلمت من التضليل والاحتواء.

ويتلخص الفرق بين الحزب والمدرسة في ثلاث نقاط هي:

أن المدرسة رتيبة وغير قادرة على التشكل حسب مقتضى الحال، بينما الحزب غير رتيب وهو قادر على التشكل حسب مقتضى الحياة، في كل الاتجاهات، وفي كل المناطق، وبين جميع القطاعات.

المدرسة تثقف الفرد ليؤثر في الجماعة، فنتائجها فردية، بينما الحزب يقوم على تثقيف الجماعة لتؤثر في الفرد، فتكون النتيجة جماعية.

المدرسة تهيئ الجزء الشعوري في الفرد ليؤثر في مشاعر الجماعة فلا يستطيع، في حين أن الحزب يهيئ الكل الشعوري في الجماعة – بضربه على العلاقات العامة في الجماعة – فيؤثر في الأفراد، ويكون قادرًا على إيقاظ الفكر.

في هذه المرحلة الدقيقة -مرحلة التثقيف- لا بد من إدراك أن المجتمع بأكمله هو مدرسة الحزب الكبرى، مع دوام إدراك الفرق الشاسع بين المدرسة وبين الحزب في حلقاته الثقافية.

المجتمع: هو المدرسة.

المبدأ: هو المعلم.

الثقافة الحزبية: هي المادة التي تدرس.

المشرفون (أي: الأشخاص الذين تجسد فيهم المبدأ وثقافة الحزب): هم الأساتذة المباشرون للتدريس.

الحلقات: هي صفوف المدرسة.

اللجان المحلية: هي الإدارة المشرفة على تعيين المدرسين وملاحظة التدريس.

هذه هي الصورة المدرسية.

ولما كانت وظيفة الحزب في هذه الفترة هي بعث العقائد الصادقة، وإيجاد مفاهيم صحيحة، ولما كان المشرفون -أي: الأساتذة؛ أي: الأشخاص الذين

تجسد فيهم المبدأ والثقافة الحزبية- لا بد لهم من دراسة عميقة لهذه الأفكار، وفهمها فهمًا صحيحًا، ومذاكرة الثقافة الحزبية في كل وقت، واستظهارًا لدستوره، وللأحكام العامة والقواعد العامة التي يتبناها الحزب، ليحسنوا القيام بالمهمة الموكلة اليهم، وهي الإشراف على الحلقات؛ أي: تدريس الصفوف هذه المادة، وهذا لا يتأتى إلا بتطبيق الصورة المدرسية، ولو أنها خالية من الامتحانات وأوراق الأسئلة ووضع العلامات، إلا أن ذلك لا يتم إلا من خلال ملاحظة الأستاذ للدارسين ومعرفة مدى استيعابهم وقدرتهم على الفهم وفي أي المراحل أصبحوا، وملاحظة تفاعلهم مع هذه الأفكار واندفاعهم في فهمها ونشرها والالتزام بما جاء فيها، وتبني ما تضمنته الأفكار، ومن هنا كان لا بد من الحرص على هذه الناحية مع كل من يدخل في هذا الحزب بغض النظر عن حقيقته الثقافية سواء أكان جامعيًا أو متخرجًا من الأزهر أو كان انسانًا بسيطًا عاميًا وفيه استعداد للتثقف، وليكن معلومًا أن أي تساهل في هذه المسألة مع أي فرد يعتبر تقصيرًا كبيرًا، وربما ينتج عن ذلك ضرر عام، من حيث إن هذا الشخص الذي جرى التهاون معه، لم يتفاعل مع هذه الثقافة وكان عنده خلفية ثقافية أخرى، فإن تحدث بين الناس فإنه لا يعبر عن رأي الحزب فيما تحدث به، وإن كلف بالإشراف على إحدى الحلقات، فسيتخرج عنه أفراد يحملون مثل ما يحمل -أي: أفكارًا ومفاهيم تختلف عما تبنَّاه الحزب- وبهذا قد يؤدي إلى الانشطار أو البلبلة على الأقل، أو أن يبقى

عضو شرف، وليس في الحزب أعضاء شرف، وأسوأ من ذلك لو تسرب مثل هذا الشخص إلى أحد الاجهزة في الحزب فسيكون ضرره أشمل و أعمّ.

وما دامت هذه المرحلة مرحلةَ تثقيف وإعداد شباب للقيادة ذوي استعداد للتضحية والقيام بأعباء الدعوة، فإنه لا يجوز مطلقا أن ينصرف عن هذه الناحية أبدًا، فهي مرحلة تثقيف وإعداد، لا مرحلة عمل أو تفاعل، ولذلك لا بد من وضع حاجز كثيف بين الحزب وبين العمل في هذه المرحلة؛ أي: قبل أن يوجد الأشخاص المثقفون بهذه الثقافة، المستعدون للاضطلاع بأعبائها، المؤهلون لقيادة الأمة، وفي الوقت نفسه الانقياد للقيادة بانقيادها للفكرة، ولهذا كانت هذه المرحلة مرحلة ثقافية ليس غير.

وأما ضرورة دوام ملاحظة الفرق بين المدرسة والحزب في الثقافة، فذلك للأسباب التالية:

أ- حتى لا تصبح الثقافة الحزبية ثقافة مدرسية؛ أي: دراسة رتيبة لكتبه ولو أدى ذلك إلى حفظها واستظهارها؛ لأنه في هذه الحالة يفقد فعاليته، فلا يتفاعل الدارس بما يدرس، ولا يحمل لغيره ما فهم، ولا يهتم بما يجري حوله من أحداث ولا ما يحصل من وقائع. مع أن ما يدرسه هو أفكار وأحكام وآراء لها واقع أو تعالج واقعًا، وحين تدرس لا بد من إدراك واقعها وإنزالها عليه، والالتزام بما فهم.

ب- وحتى لا تبقى تعليمًا أو ثقافةً مدرسية لا بد أن يدرك منذ البداية أن هذه الأفكار والمفاهيم إنما تؤخذ لتغيير المفاهيم والعقائد في المجتمع، وللعمل بها في معترك الحياة، ولحملها قيادة فكرية في الأمة. وفي هذا إشارة لمن يحمل هذه الأفكار أن يشعر بأنه قائد لهذه الأمة بهذه الأفكار، وليس مجرد فرد في الرعية يريد أن يفهم الإسلام.

ت- أن يُحال بين الراغبين في العلم وبين هذه الثقافة، فليست الغاية من هذه الثقافة تنمية المعلومات أو استغلالها في التحصيل العلمي، والوصول إلى شهادة معينة، أو الاستعانة بها لأنها تساعده في مادة معينة أو في تأليف كتاب يبتغي الربح من ورائه، ومن كانت له حاجة علمية فإن سبيلها المدرسة أو الجامعة أو الكلية، ولا يجوز أن تتخذ الحلقة وسيلة لذلك.

بل إن من الخطر على الدعوة الاندفاع في الناحية العلمية؛ لأنها تسلبه خاصية العمل، وبالتالي تؤدي إلى التأخير في الانتقال إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: هي مرحلة التفاعل مع الأمة؛ وهي المرحلة التي يبدأ فيها الصراع الفكري مع الفئات الأخرى، ومع ما في الأمة من عقائد وأفكار وعادات، كما يبدأ فيها الكفاح السياسي والتصدي للأنظمة الفاسدة والقائمين عليها، وهذا يتطلب أن تكون المرحلة التي سبقت قد هيأت الأشخاص القادرين على تحمل أعباء الدعوة في هذه المرحلة؛ أي: أنه لا يكفي أن يكون الشاب قد استوعب تلك الثقافة وهضمها وتبناها، بل لا بد أن يكون قد

عرف عنه في وسطه أنه حامل دعوة، وأن الروح الجماعية قد تكونت فيه؛ أي: يهتم بلقاء الناس كحامل دعوة، حتى إذا انتقل إلى المرحلة الثانية كان من السهل عليه أن يتصل بالناس وكان الاستعداد الجماعي موجودًا فيه، وأصبح فيه قابلية التأثير في الناس الذين يعيش معهم، هذا ما يجب أن يتم في مرحلة التثقيف، لا مجرد التعلم والاستيعاب والالتزام؛ لأن نجاح الحزب في المرحلة الثانية متوقف تمامًا على نجاحه في المرحلة الأولى، والإخفاق في هذه المرحلة دليل على وجود خلل في مرحلة التكوين، ولا بد من البحث عن هذا الخلل ومعالجته، فباختصار لا بد أن يكون جمهرة أعضاء الحزب مؤهلين للانتقال إلى المرحلة الثانية، بالتثقيف الواعي، ثم الالتزام والتبني وعدم التهاون في ذلك، بالإضافة إلى الاستعداد النفسي والتأهيل للتضحية، ولا بد أن تكون رغبتهم الجامحة هي العيش بين الناس، والأهم من ذلك شعورهم بأنهم يعيشون في الناس قادةً لهم أو رعاةً لمصالحهم أو حراسًا لكيانهم، وأنهم مسؤولين أمام الله تعالى عن حمل هذه الدعوة للناس كافة؛ أي: الارتفاع بنفسيتهم من التبعية إلى القيادة، فهذا ما يحقق النجاح في المرحلة الثانية.

وتأكيدًا وتوضيحًا لما تقدم نقول: إن عضو الحزب لا ينتقل من دور الثقافة إلى دور التفاعل إلا إذا نضج ثقافيًا نضجًا جعله شخصية إسلامية؛ أي: تتجاوب عقليته مع نفسيته، إذ أن الشخصية قوامها العقلية والنفسية، والمقصود بالعقلية هي الكيفية التي يتم إدراك الأمور بحسبها، فالإنسان حين يبحث في مسألة ما

أو يريد الوصول لمعالجة ما يحتاج إلى معلومات تفسر له هذا الواقع لكي يربطها بهذا الواقع فيحصل على نتيجة ما، إلا أنه قبل أن يربط بين الواقع والمعلومات فإنه يحتاج إلى قاعدة أو مقياس يقيس عليه الواقع، ويقيس عليها المعلومات فيجري الربط بناءًا على هذه القاعدة أو المقياس الذي لجأ إليه حين الربط، إن هذه العملية؛ أي: الرجوع إلى قاعدة أو قواعد معينة، هي التي تحدد الكيفية التي يعقل بها الأشياء، وعلى أساسها تتكون عقليته، وباختصار نستطيع القول أن تكوين العقلية متوقف على مجموعة المقاييس والقواعد التي يستعملها حين الربط.

مثلًا: شخص يتخذ قاعدة: "صيغة الأمر تفيد الوجوب"، وآخر لديه قاعدة: "صيغة الأمر تفيد مجرد الطلب ولا تنصرف عن ذلك إلا بقرينة"، عندما يبحث هذان في مسألة إعفاء اللحية؛ فإن كلًا منهما يصل إلى نتيجة مغايرة لنتيجة صاحبه؛ لأن الكيفية التي يتم بموجِبِها عقل هذه المسألة مختلفة بينهما، وهذا الاختلاف سببه الاختلاف في القاعدة التي استند كل منهما إليها.

وهكذا، فالعقلية الإسلامية هي التي تضع مجموعة القواعد والمقاييس الإسلامية مرجعًا تقيس عليها الواقع والمعلومات قبل عملية حكمها على الأشياء؛ أي: أن جعل مجموعة النصوص وما تقاس عليه هذه النصوص منطلقًا للحكم على الأشياء واستنباط الأحكام لها هو العقلية الإسلامية، ومجرد السؤال عن دليل مسألة ما لمعرفة ما إذا كان هذا الرأي مستندًا إلى دليل

شرعي يجعل العقلية عقلية إسلامية، فهي ليست خاصة بالفقهاء أو المجتهدين.

وأما النفسية فإنها سلوك الإنسان في الحياة بناءً على مفاهيم عنها، فالنفسية الإسلامية هي التي تسأل عن الحلال والحرام في كل عمل لها، فتقوم بما هو حلال وتمتنع عما هو حرام، وليست هي فقط النفسية المتبتلة المنقطعة للعبادة أو المتصوفة، بل مجرد جعل الحلال و الحرام قاعدة للسلوك إنما يعني وجود النفسية الإسلامية، وتنمية العقلية يأتي بزيادة المعارف عن الشريعة والوعي على القواعد والمقاييس الشرعية، وهذا يتأتى بحفظ العديد من النصوص كالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة والقواعد الأصولية والفقهية، وأما تنمية النفسية فإنها تأتي من كثرة التقرب إلى الله بالطاعات؛ أي: القيام بالفروض وما هو فوق الفروض من النوافل والسنن وصيام التطوع وقراءة القرآن وغير ذلك.

بهذه العقلية والنفسية تتكون الشخصية الإسلامية التي لابد منها لحامل الدعوة، قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به".

هذا ما يجب أن يكون عليه عضو الحزب بالإضافة إلى ظهور الميول الجماعية فيه؛ أي: حبه للاتصال بالناس كحامل دعوة، وإخراجه من العزلة ، التي غالبًا ما يتصف بها الشباب المؤمن الملتزم هروبًا من فساد المجتمع، وابتعادًا عن

مشاهدة الموبقات المنتشرة في المجتمع، إن هذه العزلة قاتلة للروح الجماعية التي يجب توفرها في حامل الدعوة، حيث إن هذه العزلة هي مزيج من الجبن واليأس، وتكاد أن تكون هاتان الصفتان تطغيان على نفوس معظم الشباب الملتزم، فهو خائف من اضطهاد المجتمع له، ويائس من صلاحه.

ولكن الخوف بلغ عنده حد الجبن المقعد عن العمل، فلا بد لحامل الدعوة أن يتخطى هاتين الصفتين، ولا بد من محاولة قلعهما من أفراد المجتمع بشكل عام؛ لأنهما أصبحتا من المفاهيم المركزة في المجتمع.

أما انتقال الحزب من دور الثقافة إلى دور التفاعل فإنه انتقال طبيعي؛ أي: بعد أن تستكمل في دور الثقافة نقطة الابتداء، والغاية من هذا الدور وجود أشخاص تجسد فيهم المبدأ، وآمنوا بأنهم إنما يعيشون به ومن أجله، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن المجتمع من حولهم بدأ يحس بالدعوة وبالمبدأ إحساسًا واضحًا، فإذا تحقق له ذلك صار انتقاله إلى دور التفاعل انتقالًا طبيعيًا، إذ إنه يمكن القول بأن المبدأ أصبح موجودًا في الأمة، ولا يخشى عليه، وهذا يعني الانتهاء من نقطة الابتداء والانتقال إلى نقطة أخرى هي نقطة الانطلاق، وبالحديث عن النقاط لا بد من وقفة لتحديد معنى هذه العبارة.

هناك ثلاث نقاط تتضمن كل نقطه مرحلة تليها، فالنقطة الأولى هي نقطة الابتداء -أي: نقطة التأسيس والوجود-؛ فلا يعتبر الحزب موجودًا إلا إذا تم تأسيسه؛ أي: بإيجاد نقطة الابتداء، وتبدأ هذه النقطة منذ اللحظة التي أشرقت

فيها هذه الدعوة في ذهن الشخص الأول؛ أي: الخلية الأولى، مرورًا بالبحث عن خلايا أخرى لتكوين الحلقة الأولى –القيادة – وإعداد الكتلة الحزبية، ثم المرور بمرحلة الثقافة والتي تعني إيجاد مجموعة من الناس مؤهلة لتحمل الدعوة، أقوياء بإيمانهم، مخلصين بدعوتهم، يعيشون بهذه الثقافة، ونذروا أنفسهم لها. بالإضافة إلى إيجاد أجواء حولهم؛ أي: جعل المجتمع الذي يعيشون فيه يحس بالمبدأ ويحس بهم كحملة دعوة، وبهذا نستطيع القول إن الحزب قد وجد، وأن هذا الحزب عليه أن ينتقل للعمل في الأمة والتعامل معها، هذا ما نعنيه بالنقطة الأولى المتضمنة لمرحلة التثقيف، وهي ما نُطلِقُ عليه نقطة الابتداء.

أما النقطة الثانية وهي نقطة الانطلاق، فتشتمل على مرحلة التفاعل مع الأمة؛ أي: جعل الأمة في أحد أقطارها تحتضن المبدأ، وتحتضن دعاة المبدأ؛ أي: تقبل بهذا المبدأ لتنظيم علاقاتها وتقبل بقيادة الحزب لها؛ أي: أن التفاعل قد تم بين المبدأ والأمة وبين الأمة والحزب.

وأما النقطة الثالثة وهي نقطة الارتكاز، فبعد التحقق من أن الأمة قد احتضنت الفكرة؛ أي: المبدأ وقبلت بالحزب قائدًا لها، وتم التفاعل على هذا الأساس، يقوم الحزب بالانتقال من مرحلة التفاعل إلى ما يسمى بنقطة الارتكاز؛ أي: أنه أصبح متهيئا للتركز وتطبيق فكرته في الحياة، فتبدأ هذه النقطة بالبحث عن مراكز القوة الذين لهم القدرة على كسر الحاجز المادي الذي

يحول بين الحزب وتطبيق مبدئه، فإذا تم للحزب العثور على مراكز القوة، ونفذوا ذلك انتقل الحزب إلى مرحلة الحكم وتنفيذ المبدأ.

إذن؛ **نقطة الابتداء:** وتتضمن مرحلة التثقيف .

ونقطة الانطلاق: وتتضمن مرحلة التفاعل.

ونقطة الارتكاز: وتتضمن مرحلة الحكم.

وبهذا يكون الحزب قد وصل إلى هدفه وسار في تحقيق غايته، وهي استئناف الحياة الإسلامية وحمل الإسلام للعالم.

عَودًا إلى عملية الانتقال إلى نقطة الانتقال، نقول إن الحزب حين يريد أن ينتقل انتقالًا طبيعيًا لا بد له من مخاطبة الأمة مباشرة، إلا أنه قبل أن يبدأ بمخاطبتها مباشرة لا بد له أن يقوم بمحاولة مخاطبتها، فإذا نجح في محاولة المخاطبة خاطبها مباشرة، ونعني بالمخاطبة المباشرة دعوةَ الأمة للقيام بأعباء الدعوة، واعتبار المبدأ مبدأها، وذلك قبل البدء بهذا الأسلوب، لا بد من محاولة المخاطبة لمعرفة مدى تجاوب الأمة مع هذه المحاولة، وهذا يعني أن يضيفه الحزب إلى العمليتين السابقتين: التثقيف المركز في الحلقات، والتثقيف الجماعي اللتين كان الحزب يقوم بهما في مرحلة التثقيف؛ أي: أن يضيف إليهما عملين آخرين هما تبني مصالح الأمة وكشف خطط الاستعمار، وتبني المصالح إما أن يكون تبنيًا فكريًا أو عمليًا، أما التبني الفكري فهو بيان ما تبنى الحزب من آراء ومعالجات لمصالح الأمة، وأما التبني العملي فهو أن يأخذ على عاتقه

تحقيق مصلحة من مصالح الأمة حين يقدر على ذلك أو كان مما يجب عمله، وهذا أمر ليس بالسهل؛ لأن المصالح إنما يقوم على رعايتها النظام الفاسد المطبق عليها.

وأما كشف خطط الاستعمار فإنما يعني الاستعداد للكفاح السياسي، فإن هذا العمل يشكل خطرًا جسيمًا على الاستعمار بكل أشكاله، ومن عادة كشف الخطط أن يؤدي ذلك إلى إحباط الخطة ومنع تنفيذها؛ لأن الاستعمار وأعوانه مهما بلغوا من تسلط وجبروت فإنهم لا يباشرون تنفيذ خططهم وأساليبهم بشكل مكشوف؛ لأنهم يخشون غضب الأمة ونقمتها، ولذلك فإنهم يخفون غاياتهم وأهدافهم تحت ستار كثيف من الخداع والتضليل حتى ينطلي عملهم على الأمة، ويبدأ ترويضها بقبول ما رسموا لها، فعملية الكشف حين تتقبلها الأمة وتثار نقمتها إنما تعني إيجاد النقمة عند الأمة على الاستعمار وأعوانه، ومن البديهي أن يتصدى الكافر لمقاومة الدعوة بواسطة عملائه وأعوانه، وهنا يبدأ الكفاح السياسي والمجابهة بين الحزب والسلطة القائمة، هذا بالإضافة إلى الصراع الفكري الرهيب بين الحزب والفئات المناهضة له من حملة الأفكار الفاسدة وما يتبعها من عداء ودعاية ومجابهات تتطلب نفوسًا عالية لتحمل هذه الأعمال، فإذا نجح الحزب في القيام بهذه الأعمال الأربعة (التثقيف المركز والتثقيف الجماعي وتبني مصالح الأمة وكشف خطط الاستعمار)، صار انتقاله لمخاطبة الأمة مباشرة انتقالًا طبيعيًا، ومعنى نجاحه في هذا الأمر ثلاث نقاط:

ثبات شبابه واستعدادهم لمجابهة أمر لم يعهدوه من سجن وتعذيب وتشريد ومحاربة في الأرزاق، واستمرار استعدادهم للتضحية والفداء.

إجبار الفئات الأخرى التي تخالفه الرأي على خوض الصراع الفكري معه، وجعل الأمة تنتظر رأيه وتأخذه بالمناقشة، سواء قبلت به أو رفضته.

إجبار السلطة على التصدي له ولو بالسجن أو التعذيب والتشهير والمنع، وكسر الطوق المفروض عليه من اللامبالاة أو التعتيم الإعلامي عليه.

هذا ما يعنيه نجاحه في العملين الأخيرين، بعد أن نجح نجاحًا منقطع النظير في التثقيف والإعداد، ونجاحه هذا هو الذي يجعل انتقاله إلى مرحلة التفاعل انتقالًا طبيعيًا.

إن التفاعل مع الأمة ضروري جدًا؛ لأنه لا بد من إدراك معنى التفاعل مع الأمة، فالمعنى المقصود من التفاعل هو قبول الأمة للمبدأ واعتباره مبدأها، وقبولها بقيادة الحزب لها، وليس المقصود بالتفاعل جعلَ الأمة أو غالبيتها أعضاء في الحزب ويدرسون في حلقاته. فهذا أمر خيالي ولا يمكن أن يتحقق؛ لأن الفئة المتحركة في القضايا العامة، والتي تهتم بالشؤون السياسية في أرقى الأمم لم تتعد في تاريخها نسبة ٦ ٪ وهي نسبة الصحابة إلى مجموع المسلمين عند وفاة رسول الله ﷺ، وكذا الحال في الدول الناهضة والتي مر على نهضتها قرون وأجيال فإن نسبة العاملين فيها في أحزابها السياسية لم تتعدَ نسبة ٥ ٪ .

فإذا علم أن في الأمة فئاتًا وأحزابًا متعددة، والكل في صراع للحصول على هذه

الفئة المتحركة (فئة الـ ٥٪) فإن العبرة لا تكون في الكثرة أو القلة، وإنما بمقدار انتزاع ثقة الأمة واحتضانها للفكرة وقبولها بقيادة الحزب، هذا ما نعنيه بالتفاعل.

وأهمية هذا التفاعل تكمن في أن الحزب لا يستطيع أن يقوم بعمله والنجاح في مهمته إلا إذا تفاعل مع الأمة، ولا يستطيع أن يسوقها للقيام بعمل إلا إذا تفاعلت معه، والذي يسهل عملية التفاعل هذه كون المبدأ موجودًا في تراث الأمة الثقافي والتاريخي، وعقيدة المبدأ هي عقيدة الأمة التي تثير مشاعرها وتنبه أحاسيسها، وحين تحولت هذه الأحاسيس إلى فكر تبلور في الفئة المختارة التي تكون منها الحزب، وكانت القاعدة الثابتة لهذه الأحاسيس، وهي: "الفكر والعمل من أجل غاية" هي التعبير الحقيقي للمبدأ. ولذلك كان المبدأ هو إحساس الأمة الداخلي، ويكون الحزب معبرًا عن هذا الإحساس، وإذا كان الحزب فصيح التعبير؛ أي: يوضح ما يريد بلا تورية ولا مواربة، من حيث إن الفصاحة هي إبراز المعنى المراد، فحين ينادي بالحكم الإسلامي فلا يتخفى وراء كلمة دولة إسلامية، أو حكومة إسلامية، أو جمهورية إسلامية، بل يقولها "خلافة" بلسان فصيح بلا مواربة، وحين يتحدث عن الاستعمار لا يكتفي بذلك بل يصفه بصفته الحقيقية "الكافر المستعمر"، هذا من حيث الفصاحة في التعبير؛ أي: واضح اللغة، فاللغة هي القالب الذي تصب فيه المعاني الموجودة في النفس، ولذلك لا بد له من استعمال اللغة التي يفهمها

الناس بسهولة ويسر، متصفًا بصدق اللهجة، هذا وصدق اللهجة إنما يعني الجرأة في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، فلا يداهن و لا يداجي ولا يخادع، يقول رأيه بكل صراحة ولا يخشى أحدًا إلا الله ولا يستعين إلا بالله.

فإذا سار الحزب متصفًا بصدق اللهجة، ووضوح اللغة، وفصاحة التعبير، فهمت الأمة المبدأ سريعًا، وتفاعلت مع الحزب، واعتبرت بمجموعها هي الحزب، واعتبر الحزب قائدًا لهذه الأمة، يسير نحو المرحلة الثالثة بخطى ثابتة، وطريق واضح، وهي مرحلة تطبيق المبدأ تطبيقًا انقلابيا عن طريق الحكم باعتباره الطريقة الوحيدة لتنفيذ الفكرة؛ أي: باعتبار الحكم جزءًا من المبدأ.

إلا أن هنالك صعوبات عديدة تقف في وجه هذا التفاعل. ولا بد من معرفتها، ومعرفة طبيعتها، للعمل على التغلب عليها. وهذه الصعوبات كثيرة أهمها ما يلي:

أ- تناقض المبدأ مع النظام المطبق في المجتمع.

ب- اختلاف الثقافة الموجودة في المجتمع مع ثقافة المبدأ.

ت- وجود الواقعيين في الأمة.

ث- ارتباط الناس بمصالحهم.

ج- ما يتوهم أنه صعوبة مثل الاختلاف المدني بين المدينة والقرية.

أما تناقض المبدأ مع النظام المطبق، فإن مبدأ الحزب نظام جديد بالنسبة للمجتمع الحاضر، وهو يتناقض مع النظام المطبق في المجتمع تناقضًا تامًا، ولا

مجال مطلقًا للالتقاء أو التوافق، وذاك أن نظام المبدأ نظام جاء به الوحي من عند الله، وأما النظام المطبق في المجتمع فهو نظام وضعي؛ أي: أن الإنسان هو الذي وضعه انطلاقا من مبدأ آخر هو المبدأ الديمقراطي وهو مبدأ كفر وضعه الإنسان، وقد فرضه الكفار على هذا المجتمع فرضا، وما زالوا يحاولون تركيز مناهجه في أذهان الناس وتركيز الأسس التي بني عليها مثل فكرة الحرية، وفكرة الحل الوسط وغيرهما، ومحاولة التضليل والتوفيق في أوجه الشبه بالفروع أو الأسس كتشبيه الديمقراطية بالإسلام في نظام الحكم حيث يتصورون أن نظام الحكم في الإسلام هو الشورى وأن الديمقراطية هي الشورى، مع أن الحكم في الإسلام ليس شورى، بل إن الشورى نفسها ليست نظام حكم، وإنما هي -الشورى- أسلوب يستعمله الإنسان -أي إنسان- للتوصل إلى رأي حين يلتبس عليه أمر ما؛ أي: أسلوب يستعمله الفرد العادي كما يستعمله الحاكم، ويستعمله الحاكم المسلم كما يستعمله الحاكم الشيوعي أو الرأسمالي، والحاكم المسلم يندب له أن يستشير، وليس فرضًا عليه أن يستشير، ومثل هذه الأمور من محاولات التضليل، وأقام الكافر على رقاب الناس حكامًا يطبقون هذا النظام ويروضون الناس لقبوله، ويحاولون إقناعهم بذلك، ووضعوا مناهج التعليم والتثقيف في الأمة على أساسه، فمن البديهي أن يتصدى هؤلاء الحكام للمبدأ الجديد ويحاربوه بكل الوسائل، مثل الدعاية ضده، ومطاردة حمَلة الدعوة، ومحاربتهم في أرزاقهم، أو السجن أو التعذيب،

أو غير ذلك، وعلى هذا فلا بد أن يكون هذا الأمر واضحا عند الشباب منذ عزمهم على حمل الدعوة ليوطدوا العزم على مجابهة هذا الأمر. ولذا لا بد أن يكون لهم العبرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما جاء في القرآن الكريم من سير الأنبياء السابقين وموقف أقوامهم منهم، كما كان يطمئن القرآن رسول الله ﷺ : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾. وقد قص الله تعالى علينا سير الكثيرين من الأنبياء وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، وبناءً عليه يجب أن تكون قدوةُ الشباب سيرةَ رسول الله ﷺ، وأن يكونوا كلهم على استعدادٍ للمحاربة والتضحية والفداء.

اختلاف الثقافة: من البديهي أن يكون في الأمة ثقافات مختلفة وذلك بسبب تعدد الفئات فيها، فلكل منها ثقافة معينة يدعو إليها، بالإضافة إلى الثقافة التي يفرضها النظام بسبب مناهج التعليم ووسائل الإعلام، بالإضافة إلى تعدد الأفكار وتباينها واختلافها، فلكلٍ وجهةٌ هو مولّيها، إلا أن الأمة لها إحساس واحد وتكون هذه الأفكار وهذه الثقافات تعبيرًا معكوسًا عن أحاسيس الأمة؛ لأنها ليست منبثقة عن عقيدة الأمة ومبدئها، أما ثقافة المبدأ؛ أي: الثقافة الإسلامية فهي التعبير الصادق عن أحاسيس الأمة وشعور الأمة بعزتها وكرامتها، وسيادتها للعالم وقيادته، وليس أمر ذلك ببعيد عنها، فلم تغب قيادتها للعالم أكثر من مائة سنة، ولم تنزل من مقعدها في مقدمة الأمم إلا منذ فترة وجيزة أزالها عن ذلك الكافر المستعمر. إن هذه الحقائق التاريخية توجَد

لدى الأمة الإحساس العام بأنها يجب أن تعود سيدة العالم، ومفاهيم الأعماق فيها المنبثقة من عقيدتها، والقائلة لها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، إن هذه الحقائق التاريخية وهذه المفاهيم العقيدية، توجد عندها أحاسيس تدفعها للنهضة، إن هذه الأحاسيس لا تمت إلى الثقافة والأفكار المفروضة عليها بصلة، لهذا فهي تعبير عكسي عن أحاسيس الأمة، ويحضرني في هذه المسألة مثال لمسته في كراتشي باحتفال أقيم بذكرى محمد بن القاسم فاتح السند، فقد أحتفل به المسلمون باعتباره هاديهم ومرشدهم إلى الإسلام ولو بفتح عسكري، ونقم الهنود الكفار على ذلك باعتباره قاتلًا لبلادهم هادمًا لسلطانهم. ولهذا نقول إن أحاسيس العزة والكرامة والمجد تتنافى وتتناقض مع ثقافة نشأت نتيجة هزيمة الأمة وزوال سلطانها، وانبثقت من مبدأ يحتل الصدارة في عدائها.

لهذا كانت هذه الثقافة تعبيرًا معكوسًا عن حقيقة أحاسيسها. أما ثقافة المبدأ فهي التعبير الحقيقي عن هذه الأحاسيس. ومع ذلك فإن الرأي العام الثقافي في المجتمع، والمنهاج الثقافي المدرسي، ووسائل الإعلام جميعها من صحف ومجلات ونوادي ومعاهد كلها تسير بحسب الثقافة الأجنبية، بالإضافة أن كافة الحركات السياسية الموجودة سائرة مع الثقافة الأجنبية ومتبنِّيَة لها، ولهذا لا بد للحزب في ثقافته من الدخول في صراع عنيف مع الثقافات والأفكار الأخرى، وهذا يتطلب منه الوعي على تلك الثقافات، وبيان مناقضتها للمبدأ،

وبيان فسادها، حتى يظهر للأمة التعبير الصحيح عن أحاسيسها وشعورها فتسير معه، ولهذا فإن من المحتَّم أن يجري صراع حادٌّ بين الحزب وغيره من الفئات، إلا أنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن هذا الصراع هو صراع أبناء الأمة الواحدة، وليس صراعًا بين المسلمين والكفار، صحيح أنه صراع بين أفكار الإسلام وثقافته يقوده مسلمون، وبين أفكار كفر ومفاهيم كفر وثقافة كفر يقودها مسلمون أيضًا، إلا أنه يجب ألا يغيب عن الذهن طبيعة هذا الصراع. فهو تصادم بين أبناء الأمة الواحدة، ولذلك لا يجوز أن يأخذ دور الجدل العقيم، بل يكتفى برسم الخط المستقيم أمام الخط الأعوج؛ لأن الجدل العقيم يصم الآذان والأبصار، ولهذا فإن على الشاب وهو يخوض مثل هذا الصراع أن يشرح أفكار الحزب وعقيدته ومفاهيمه مبينًا الأدلة والبراهين، وموضحًا فساد الأفكار الأخرى وزيفها ونقاط بطلانها بأسلوب فكري مبني على العقل، وشارحًا ما في نتائج هذه الثقافات الفاسدة من أخطار على الأمة، ووجودها كله، وفي هذه الحالة تتحول الأمة عن هذه الثقافات وتتجه إلى ثقافة الحزب وفكره، بل إن أصحاب هذه الثقافات قد ينصرفوا عنها إن كانوا مخلصين واعين؛ لأن زيفها واضح وخطرها متبين.

إلا أن هذه العملية هي من أشق العمليات، فهي صراع مع جميع الناس، وكلما كانت البلاد غارقة في الثقافة الأجنبية كلما كانت العملية أشق وأصعب، وكانت قابلية النهضة في البلاد التي تقل فيها الثقافة الأجنبية أيسر وأسهل،

وهذا يتطلب معرفة الواقع الذي يعمل فيه الشاب، ليضع له الأساليب المناسبة له، وقد لاحظنا كيف أن القرآن الكريم ما ترك فئة في المجتمع أو فكرة خاطئة إلا رد عليها، وبين بطلانها، وكشف زيفها بالحجة والبرهان.

ومن الصعوبات وجود الواقعيين في الأمة، نتيجة لهيمنة الثقافة الأجنبية، وتسميم الأجواء بالمفاهيم والأفكار الفاسدة، فنتيجة لغياب الثقافة الإسلامية وعملية التجهيل القائمة لها، والجهل العام المطبق الذي أحاط بالأمة منذ عهد الانحطاط، نشأ من ذلك كله فئتان تمثلان الواقعية، وقد سبق تعريف الواقعية.

أما الفئة الأولى فهي الفئة الواقعية، التي تدعو إلى الواقع، وإلى الرضا بالأمر الواقع، وتسلّم به كأمر حتمي، ولذلك فهي فئة عاملة متحركة لكنها انتهجت هذا النهج وجعلت الواقع مصدر تفكيرها، وعلى أساسه تبحث عن حل لمشاكلها، وهي ما يسمى بالبراجماتية، مع الاختلاف في الأصل، من حيث إن مذهب الواقعيين عند حملة المبادئ هو التعامل مع الواقع كما هو والاستفادة منه، بينما الواقعية عند الناس المتخلفين والخاضعين لغيرهم تؤدي إلى الإقرار بهذا الخضوع وتبحث عن كيفية التعامل مع هذا الواقع، ولهذا كان الواقع مصدر تفكيرها، ولكونها فئة عاملة متحركة فإن التعامل معها سهل، فلا تحتاج لأكثر من التعمق معها في البحث، وإقناعها بأن الواقع يجب أن يكون موضع التفكير لا مصدر التفكير، ولا بد من تغيير الواقع تبعًا للفكرة التي نؤمن بها، وليس التخلي عن الفكرة، أو تأجيلها للتكيف مع الواقع. وبذلك يمكن أن

ترجع عن تفكيرها، وأن يستفاد منها من حيث إنها فئة عاملة متحركة، يراد تصحيح خط سيرها، وتوضيح طريقة التفكير الصحيحة لها.

وأما الفئة الثانية من الواقعيين، فهي فئة الظلاميين التي تأبى أن تعيش في النور؛ لأنها ألفت الحياة في الظلام وتعودت التفاهة والسطحية، أصيبت بمرض الكسل الجسمي والكسل العقلي، وجمدت على القديم، ولذلك فهي واقعية فعلًا لأنها من جنس الواقع، وهي جامدة فكرًا، ومثل هذه الفئة تحتاج إلى معاناة أكبر، وطريقة التغلب على صعوبتها، هي محاولة تثقيفها، والاجتهاد في تصحيح مفاهيمها، إلا أن الصعوبة الأكبر هي عملية إقناعها بقبول التثقيف؛ لأن التثقيف عمل، وهي جامدة ليس عندها الاستعداد للعمل، ولهذا أرى أن عملية إثارتها والضرب على أوتار حساسة عندها يمكن أن يخرجاها عن جمودها، وإلا فإن العمل على إبعادها عن وسطها المتأثر بها أو إبعاد وسطها عنها هو العلاج الناجح، ومن أولئك: العلماء والزعماء والموجهون الذين لهم وسط يعيشون فيه، فلا بد من اختبار الأساليب المناسبة لإبعاد أثرهم عن الوسط الذي يعيشون فيه، وانفضاض الناس عنهم، فهم آخر من يؤمن، وأول من يحاول العصيان.

ارتباط الناس بمصالحهم: إن الانسان يرتبط بمصالحه الشخصية وأعماله اليومية؛ ولذلك فإن من الصعوبة التأثير على الناس وكسبهم لجسم الحزب أو لاحتضانه؛ لأن ذلك يتناقض مع مصالحهم المرتبطة بالنظام وأعوان النظام

ومنفذيه، والكافر كان حريصًا على أن يستولي على الناس من بطونها ليصل إلى أفكارها، ولما كان الحزب لا يملك القدرة على تأمين مصالح الناس وتحقيقها فإن إمكانية تأثيره في الناس تكون قليلة، وذلك لانحطاط الناحية الفكرية في الأمة، وحرصها على تحقيق مصالحها، وحتى لو تأثرت بالناحية الفكرية فإنها لا ينتظر منها الاندفاع فيها إلا بأمل قوي ونفس قصير، ولأصبحت كما قال الفرزدق عن أهل العراق للحسين بن علي رضوان الله عليهما: "قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية".

هذا من حيث الناس والمجتمع، أما من حيث الشاب العضو في الحزب فلا بد له أن يؤمن الإيمان المطلق أن وجوده في الحياة إنما هو من أجل الإسلام، فهو يحيى به ومن أجله، وبهذا يكون المبدأ والحزب هما المركز الذي تدور حوله مصالحه الشخصية، بل إن ما يكسبه في الحياة إنما هو من أجل إعانته على حمل هذا المبدأ والمحافظة عليه؛ أي: أنه شرى نفسه وماله ابتغاء مرضاة الله في حمله للدعوة، وفي هذه الحالة لا يجوز له أن يشتغل في عمل يتناقض مع الدعوة؛ أي: فيه مخالفة شرعية، سواء في طبيعته كالعمل الحرام، مثل العمل في البنك أو مزاولة القمار أو ما شاكل ذلك، أو عضوًا في مؤسسة تتعامل بالحرام كالصيرفة والشركات المساهمة وأمثالها، كما لا يجوز له أن يعمل في عمل ينسيه الدعوة أو يعوقه عنها كالعمل سحابة النهار وشطرًا من الليل في عمل ليس للدعوة فيه وجود؛ أي: أنه لا يمكنه من الاتصال بالناس والاحتكاك بهم ومناقشتهم أو

دعوتهم لفكرته، والأمثلة على ذلك كثيرة، كأن يعمل مزارعًا في مزرعة تأخذ عليه وقته كله، أو في معمل أو مصنع أو غير ذلك، فإذا التزم بمثل هذا؛ أي: امتنع عن الشغل في عمل متناقض مع الدعوة أو في عمل ينسيه الدعوة فإنه يكون في هذه الحالة قد تخطى هذه الصعوبات، وجعل الدعوة مركز تنبهه وقطب الرحى في دائرة مصالحه، وأصبحت مصالحه تدور حول الدعوة، فهي الأساس في حياته، وأبعد عن كون الدعوة تدور حول مصالحه، فهو يدعو لها وقت فراغه ويتركها عند تعارضها مع مصالحه، أو حين تهدد مصالحه، أو يلحقه منها أذى.

ومن الصعوبات في مثل هذا المجتمع المنحط، إيجاد مفاهيم التضحية والفداء وتركيز معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم ﴾، فمفهوم التضحية بالمال والتجارة ومباهج الحياة الدنيا وزينتها في سبيل الله؛ أي: الدعوة إلى الإسلام، يجب أن يتركز كمفهوم عند شباب الدعوة عن قناعة وإيمان، لا بالأمر والإلزام، ولذلك يُكتَفى معهم بالتذكير، ويُترَك لهم الخيار في التضحية في هذه الشؤون، فلا يُستكرَهون على شيء، ولكن يُلاحَظ فيهم مدى استعدادهم للقيام بمثل هذه التضحيات، حتى إذا لُـمِسَ ضعفٌ في هذا الجانب يُعمل على تنميته بمعالجة منطقةِ إيمانه، وتوضيحِ مفاهيم الرزق، والتوكل على الله، وسبب الموت وغير ذلك من أفكار العقيدة.

كتَب عليه الصلاة والسلام كتابًا لعبد الله بن جحش حين بعثه على رأس سرية ليترصد قريشًا في نخلة بين مكة والطائف، وقد جاء في ذلك الكتاب: "ولا تُكرِهَنَّ أحدًا من أصحابك على المسير معك، وامضِ لأمري فيمن تبِعك"؛ أي: أن تُوضَّح الفكرة للشاب ويُذكَّر بها ويُترَك له خيار العمل والالتزام بالتكليف الخاص.

هذه هي بعض أهم الصعوبات التي تُجابِهُ الحزبَ، وهذه هي كيفية تخطي هذه الصعوبات. أما ما يُتوهَّم أنه صعوبة مما يُسمَّى بالاختلاف المدني، وتلك حجة مَن امتنعوا عن الوحدة بين الأقطار التي كانوا يحكمونها مع أن الوحدة هدف من أهدافهم كما يزعمون، فحزب البعث مثلًا كان حاكِمًا في سورية والعراق وقبل أن يُصبِح حزبَين؛ أي: حين كانت قيادته قومية واحدة، امتنع عن دمج القُطرَين بحجة الاختلاف المدني بين سورية والعراق.

إن الاختلاف المدني في المجتمعات أمر بديهي، فأوساط المدن غير أوساط القرى والأرياف وغير أوساط البدو، والمظاهر المدنية في المدينة غيرها في القرية، وغيرها في مضارب الخيام، وقد يوحي هذا باختلاف الثقافة، وبالتالي اختلاف التثقيف أو التوجيه المبدئي، وهذا من أخطر الاشياء؛ لأن الأمة مهما اختلفت فيها الأوساط المدنية فإحساسها واحد وفكرها واحد، ومبدؤها واحد، ولذلك لا بد أن تكون الدعوة فيها واحدة، لا فرق بين مدينة وقرية،

وأن يكون العمل للتفاعل معها واحدًا، ولهذا فإننا لا نعتبر أن الاختلاف المدني عقبة أو صعوبة في وجه الدعوة.

يتعرض الحزب في هذه المرحلة -أي: مرحلة التفاعل- إلى خطرَين؛ خطر على المبدأ، وخطر طبَقِي، أما الخطر المبدئي فإنه يتأتى من تيار الجماعة، والرغبة في الاستجابة لطلباتها الملحة، ومن تغلُّب الرواسب الموجودة في آراء الجماعة على الفكرة الحزبية، وبيان ذلك أن الحزب حين يخوض المجتمع للتفاعل معه مزودًا بالمبدأ فإنه يصطدم بمجتمع مليء بالمتناقضات، مما ورثه عن الجيل السابق، ومن أفكار رجعية قديمة، ومما أوجده الكفار فيه من مفاهيم مغلوطة، أو آراء سياسية أو فكرية، أو من مقاييس نفعية أو مصلحية. والاصطدام بالمجتمع بما فيه من هذه الأفكار سيؤدي حتما إلى التفاعل معه وأخذ قيادته على أساس المبدأ، فعلى الحزب أن يجيد إنزال أفكاره على الوقائع الجارية وأن يظهر بطلان وفساد ما في المجتمع من آراء وأفكار، وأن يعمل على إيجاد العرف العام الصالح القائم على المفاهيم المنبثقة عن هذا المبدأ حتى ينجح في قيادة الأمة، لتحتضن فكرته، وتسلس الانقياد له، وهذا ما يسهل أمامه عملية تنمية جسمه، والإكثار من عدد شبابه المؤمنين العاملين، ليكونوا القادة الفعليين للأمة يتصرفون معها تصرف الضابط في قيادة الجيش، فإن أجاد الحزب ذلك، أَمِن الانحراف، وضمن انقياد الأمة له حسب المبدأ؛ لأن انقيادها في هذه الحالة انقياد وعي، وليس انقيادًا عاطفيًا أعمى، وهذا هو الطريق السليم.

أما إذا لجأ الحزب إلى طريق أقصر وأراد أن يقود الجمهور قبل أن يكتمل التفاعل وقبل أن يوجَد الوعي العام عند الأمة؛ فإن هذه القيادة لا تكون بالأفكار، وهذا الانقياد منها لا يكون بناءً على مفاهيم، وإنما انقياد عاطفة سرعان ما تخبو وتزول، نعم إنه من السهل انقياد الأمة انقيادًا عاطفيًا، وذلك بإثارة ما يجيش في صدرها من مشاعر، وما يكتَنِفُها من أحاسيس، وتصوير مطالبها وغاياتها بأنها قريبة المنال، فإن مثل هذا التصوير والإثارة في الأمة أشبه بالخمر المعتَّقَة، فإذا كُررت هذه الإثارة وهذا التصوير أفقدَ الأمة الوعي، وانقادت انقيادًا أعمى وراءه تريد تحقيق أهدافها وغاياتها، مستسلمةً له، وتنقاد حسب أمره، فيسوقها سوقًا بعاطفتها لا بفكرها، ويكون أعضاؤه هم القادة لها.

إلا أن هذا النوع من القيادة والانقياد يُشكّل الخطر المبدئي على الحزب، وذلك أن هذا الجمهور المشبع بالتناقضات، المليء بالمشاعر الوطنية والقومية والروحية والكهنوتية، يثير التحرك الجماعي فيه عادةً مثل هذه المشاعر، فتظهر في المجتمع العنعنات التافهة مثل: الطائفية والمذهبية والأفكار القديمة كالاستقلال والحرية، كما تظهر فيه النعرات الفاسدة كالعنصرية والعائلية، فيبدأ التناقض بين المجتمع والحزب؛ لأن المجتمع المندفع بهذا الحماس يحاول أن يفرض لنفسه مطالب وأهداف، وينادي بغايات آنية أنانية مضرّة بالأمة، وفي الوقت نفسه تتعارض مع المبدأ. ويزيد اندفاع هذا المجتمع مطالبًا بتنفيذ ما

يريد، فيصبح الحزب بين نارين: الالتزام بالمبدأ، وتخلّي الجمهور عنه، أو التخلّي عن المبدأ والالتزام بالجمهور، وهما أمران أحلاهما مرّ. فالالتزام بالمبدأ يعني غضب الأمة ونِقمتَها، وهدم ما بنَى، وإبعاده عن القيادة، أو السيطرة على الجماعة، وهذه خسارة كبيرة جدًا، أما الأمر الثاني وهو التمسك بالأمة والتخلي عن المبدأ أو التساهل فيه، فهذا يعني انتحارًا سياسيًا، وفقدانًا لروح الحزب، ولذلك كان على رجال الحزب أن يلتزموا المبدأ حين يتعارض المبدأ مع مطالب الجمهور ولو تعرضوا لنقمة الأمة؛ لأنها نقمة الأمة لا تلبث أن تزول، وهي سحابةُ صيف لا تلبث أن تنقشِع، وثباتهم على المبدأ سيُعيد لهم ثقة الأمة بشكل أقوى مما كان. والحذر كل الحذر من مخالفة أي حكم من أحكام المبدأ أو التهاون فيه، أو الحَيْد عنه قِيدَ شعرة؛ لأن المبدأ هو حياة الحزب وهو روحه، وهو الذي يضمن له البقاء والتجدد، حتى لو انفضّ عنه الناس جميعًا، وانفضّ عنه جزءٌ من شبابه، فلا يجوز له التهاون في المبدأ أو في أي حكم من أحكامه.

ولهذا كان على الحزب أن يديم صِلته بالناس على أساس المبدأ وأن يعمل دائمًا على إنزال أفكاره وأحكامه على الوقائع الجارية مبنيةً على أدلّتها، مستندةً إلى قاعدتها، حريصًا على إيجاد القاعدة الفكرية عند الأمة وتعويدها قياسَ الأحداث والوقائع على هذه القاعدة المبدئية، فجَعْل العقيدة يقينية عقلية يضمن إبعادَ الخرافات والخزعبلات، والأفكار العقيدية السقيمة، وجعْل الشريعة وحيًا من عند الله -ومقياس الحكم الشرعي هو دليله الذي جاءت به

العقيدة، أي: الآية أو الحديث-؛ يُبعد المقاييس العقلية عن الأحكام والأفعال وينفي تحكيم العقل في الأحكام الشرعية ويبعد تحكيم النفعية والمصلحية عن جعلها مقياسًا للمطالب والأحكام، وهذا يتطلب الاعتناء الكامل في مرحلة التثقيف بإيجاد القدرة لدى الشباب على تثبيت هذه القواعد عند الأمة لجعلها المقاييس التي تعود إليها حين تفكر في أي مطلب لها أو تسعى لأي هدف، وبمقدار نجاح الحزب في مرحلة التثقيف وتوعية الناس على ما عنده من مقاييس وقواعد ونقل الأمة لإيجاد قاعدة فكرية لها بمقدار ما يتلافى خطر هذا الخطر المبدئي.

هذا بالإضافة إلى وجوب التنقيب دائمًا في أفكار الحزب ومفاهيمه لبقائها صافية نقية، ودوام السهر على مصالح الأمة ومحاولة رعايتها، ومراقبة ما يَكِيد الكفارُ لهذه الأمة وكشف خططهم وأساليبهم وأعوانهم كشفًا دقيقًا، ودون مداهنة أو خداع.

وأما الخطر الطَّبَقِي، فإنه يتسرب إلى رجال الحزب لا إلى الأمة، وهذا يكون حين يصبح الحزب ممثلًا لأكثرية الأمة، وهو القائد الفعلي لها، تكون له المكانة المرموقة، والمنزلة الموقّرة، والإكبار التام من قبل الأمة والخاصة من الناس، ومثل هذه الحالة تبعث الغرور في النفس، فقد يرى رجالُ الحزب أو بعضهم أنهم أعلى مكانةً من الأمة وأفضل منها، وأن منهم الأمر وعلى الأمة الطاعة، فيترفَّعون عن الناس دون أن يحِسبوا لذلك حسابًا، إلا أن ذلك سيؤدي إلى

تكوين فكرة عند الأمة أن هذا الحزب طبقة أخرى غيرها، وصار الحزب كذلك يشعر بالطبقية. وهذا أول طريق الانهيار؛ لأن مكانة الحزب وقدرته على العمل إنما تكمن في مقدار ثقة الأمة بالحزب وخصوصًا البسطاء من الناس وهم العامة، فإذا انفضت الأمة عنه نتيجة شعورها بأنه طبقة أخرى مستعلية عليها، فإن حركة الحزب تُشلّ ويفقد القدرة على تصريف أعماله، ويسهّل الطريق لخصومه للكيد له، ولا يستطيع إعادة الثقة به إلا بجهود مضنية وأعمال عظيمة لاستعادة هذه الثقة الذي اشتغل في سبيل تحصيلها عقودًا من الزمن، ولذلك فإن على أعضاء الحزب أن يكون مُنطَلَقُهم الوحيد في عملهم السياسي قاعدة واحدة: "أنهم خدَمُ الأمة"، وأن يُشعِروا الأمةَ بذلك لتزدادَ ثقةُ الأمة بهم، فقد اكتَوَتْ بنار الطبقية الحزبية في كثير من أقطارها، خصوصًا وأن المفاهيم والأفكار التي حملناها للأمة في المرحلة السابقة تنصّ صراحةً على أن القيادةَ هي خدمة الأمة، أو أن مَن يكون في مركز المسؤولية عليه دوامُ السهر على راحة الناس ومصالحهم، حتى قيل وهذا قول حق: "أميرُ القوم خادمُهُم".

- **المرحلة الثالثة**: هي مرحلة الوصول إلى الحكم، سبق أن بينَّا أن كل مرحلة يسبقها نقطة، ومنها أن مرحلة الحكم يسبقها نقطة الارتكاز؛ أي: أن مرحلة الحكم تتضمنها نقطة الارتكاز، ويدخل الحزب نقطة الارتكاز حين يدرك أن الأمة قد احتضنت الفكرة أولًا، ثم احتضنت حمَلَة هذه

الفكرة؛ أي: احتضنت المبدأ، وحملت هذا المبدأ، فإذا تحقق ذلك انتقل الحزب انتقالًا طبيعيًا إلى نقطة الارتكاز وهي البحث عن مراكز القوى لدفعهم إلى نصرة المبدأ، والعمل على إيصاله للحكم؛ أي: لتنفيذه على الناس، وهذا يتطلب أن يضيف الحزب إلى أعماله الأربعة عملًا آخر، وهو البحث عن مراكز القوى وتحميلهم هذا المبدأ، إلا أن هذا العمل قد لا يكون شاملًا لكل أجهزة الحزب، بل قد يخصص له جهاز خاص مرتبط بقيادة الحزب أو أن تباشره القيادة نفسها، هذه هي بداية نقطة الارتكاز، ثم يصار إلى المعنى الثاني من نقطة الارتكاز وهي استلام الحكم في قطر من الأقطار ليكون نقطة ارتكاز لجميع الأقطار الأخرى، وتوحيد الأمة في دولة واحدة هي دولة الخلافة، أما نقطة الارتكاز بشموليتها فهي تعني انتقال الحزب من مرحلة التفاعل بعد حصول التفاعل للبحث عن مراكز القوى، ويجب ألا يغيبَ عن الذهن أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى لا يعني تركَ ما كان يقوم له من أعمال، بل إضافة أعمال جديدة إلى ما كان يقوم به من أعمال.

ففي مرحلة التثقيف كان يقوم بالتثقيف الجماعي والتثقيف المركّز، وحين انتقل إلى **مرحلة التفاعل** أضاف إلى عملَيْه السابقَين عملَين آخرَين هما: كشف خطط الاستعمار، وتبنِّي مصالح الأمة، وحين انتقل إلى نقطة الارتكاز أضاف إلى أعماله عملًا آخَر هو طلب النُّصرَة، واستمر في التثقيف المركز والجماعي،

وكشف الخطط وتبنّي المصالح وما يتطلبه ذلك من وسائل وما يلزمه من إبداع في الأساليب، فإذا انتقل **إلى المرحلة الثالثة** كان انتقالُه طبيعيًا، وسار في تطبيق المبدأ سيرًا طبيعيًا، كما أنه سار في عمله -إنهاض الأمة- لا يتخلى عنه، حيث إن هدفه وغايته استئناف الحياة الإسلامية، وهذا لا يتأتى إلا بإيجاد النهضة فيها، وايجاد النهضة يتطلب جهودًا جبارة قبل استلام الحكم وبعده، إلا أن أعماله تصبح التثقيف المركز والتثقيف الجماعي ومراقبة الحاكم ومحاسبته.

أما كيف يتم الانتقال إلى مرحلة الحكم، فإن ذلك يتم عن طريق الأمة، ويُنفَّذُ تنفيذًا انقلابيًا دَفعةً واحدةً، وهذا ما يسمى بالطريقة الانقلابية، وهذه الطريقة لا تقبل الحكمَ مجزَّأً، بل تأخذُ الحكمَ كلَّه وتتخذه طريقةً لتنفيذ المبدأ، كما أنها لا تقبل التدريجَ في التطبيق؛ أي: أنها تُطبِّقُه منذ اليوم الأول كاملًا مهما كانت الظروف، إذًا **فالطريقة الانقلابية الشاملة** تعني أخْذَ الحكم كله دفعةً واحدةً وليس التسلُّل إلى الحكم بوزارة ثم اثنتين وهكذا حتى يتم الاستيلاء على الحكم، بل تأخذُه كاملًا منذ اليوم الأول، كما أنها تعني عدمَ التدرج في التنفيذ، بل إنها تُنفِّذ كافةَ الأحكام ولا تُبقِي مسألةً واحدةً خارجة عن أحكام المبدأ، أو أن تتدرَّج بها حتى توصلها إلى حكم الحالي، كما قيل من أن رسولَ الله ﷺ تدرّج في تطبيق الأحكام، مثل: أحكام الربا وأحكام الخمر وأحكام الرقيق، لا يقال ذلك؛ لأن رسول الله ﷺ كان يلتزم التشريعَ، ولا شرعَ قبل ورودِ الشرع، فكان يسيرُ بالشرع كما نزل، واليوم قد اكتمل الشرع وليس

لأحد أن يزيد أو يُنقِص فيه، فهذه الحالة التي عليها الشرع اليوم هي الواجبة التنفيذ، **وبمجرد الوصول إلى الحكم تبدأ الدولة بالسير في أمور ثلاث هي:**

الأول: تنفيذ المبدأ من حيث إنها هي الطريقة الوحيدة لتنفيذ المبدأ.

ثانيًا: العمل على جمع أقطار العالم الإسلامي في دولة واحدة.

ثالثًا: -وهو العمل الأصلي لها- حَمْلُ المبدأ إلى العالم، فتضع في ميزانيتها بابًا خاصًا للدعوة والدعاة.

أما الحزب فيبقى قائمًا على العمل على نهضة الأمة بأعمال ثلاث هي: التثقيف المركز، والتثقيف الجماعي، ومراقبة تنفيذ المبدأ ومحاسبة الحاكم، سواء كان رجاله في الحكم أو لم يكونوا في الحكم.

هذه هي الخطوات التي يسير فيها الحزب في معترك الحياة، لينقل الفكرة إلى الدور العملي؛ أي: لاستئناف الحياة الإسلامية، ونهضة الأمة، وحمل الدعوة إلى العالم، فالحزب هو الضمانة لإيجاد الفكرة وإقامة الدولة وتطبيق الإسلام وحمله إلى العالم، ومراقبة سير التطبيق، وفي الوقت نفسه حمل الدعوة للارتقاء بالأمة أو إلى العالم.

****